٥

يوميات مجنون

عبد الرحمن الخميسي



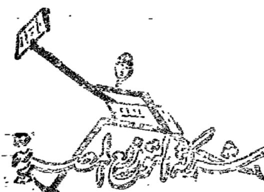
كتب للجميع

كتب للجميع



للأستاذ

عبد الرحمن الخميسي



٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة

طبع بمطابع جريدة « المصري »

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الاول) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

٢ ـ ألف ليلة الجديدة (الجزء الثانى) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

٣ ـ الاعماق (مجموعة قصص) طبعة خاصة تطلب من المؤلف

٤ ـ يوميات مجنون (أقاصيص مترجمة) طبعة شعبية تطلب من شركة التوزيع المصرية

كتب تحت الطبع للمؤلف

١ ـ الظاهر والباطن (مجموعة قصص)

٢ ـ غرام فنان (قصة طويلة)

٣ ـ فوق الحياة (ديوان من الشعر)

٤ ـ غبار الطريق (مجموعة صور تحليلية)

٥ ـ الباحثون عن الحب (قصة طويلة)

٦ ـ من أفق الموسيقى (صور فنية تحليلية)

٧ ـ الساق اليمنى (قصة طويلة)

٨ ـ من غربة الروح (ديوان من الشعر)

جى دى موباسان

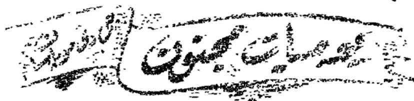
ولد جى دى موباسان عام ١٨٥٠ ولم يلتحق بالمدرسة الا فى الثالثة عشرة من عمره . وكان سخط أساتذته عليه عنيفا حادا، لحملاته المتواصلة على الكنيسة ، ولم تجد معه الانذارات المتلاحقة نفعا ، فاضطرت المدرسة الى طرده . وأتيح له بعد ذلك - وهو لما يزل يافعا - أن يجتمع بأقطاب الادب فى عصره أمثال دوديه ، وتيرجنييف ، وزولا ، وفلوبيرت وغيرهم ، وان يحضر مناقشاتهم الادبية .

وكان لذلك أعظم الأثر فى تنشئته الفنية . وبدأ نجمه يتألق فى سماء الشهرة عام ١٨٨١، واندفعت الجماهير تتهافت على كتاباته منذ ذلك الحين .

وقد عاش موباسان نهبا للهلع والاضطراب ، وجعل من نفسه مرتعا خصبا للهواجس السود . كان دائم التخوف والفزع ، يتوهم أنه سيصاب بالحمى فى كل لحظة! وعبثا حاول الهرب من شقاء خواطره وحلوكتها ! عبثا ذهبت رحلاته التى قام بها خارج فرنسا ابتغاء الافلات من سجن أوهامه الرهيب! ولم يجد خلاصا من هواجسه غير الانتحار ! ولكن المسدس فى المرة الاولى كان خاليا من الرصاص ، فاستعمل فى المرة الثانية سكينا حاول ان يقطع بها عنقه . غير أن القدر الذى يشاء دائما ان يدفع له العبقرى ثمن تفوقه ، لم يرحمه فيكتب له الموت !

انقذوه بوقف النزيف، وحملوه الى مستشفى الامراض العقلية ليمضى بين أسوارها بقية أيامه المذهولة . وهكذا انتهت حياته على هذه الصورة المفجعة عام ١٨٩٣.

وكان موباسان أراد ان ينقل فى « يوميات مجنون » حالة صادقة عن انحطاطه العقلى فى نهاية حياته ، أراد ان ينقلها جريئة مهتوكة حتى عن نفسه، وهو على قمة انتصاره الفنى .



مات الرئيس ، رئيس احدى المحاكم العليا ، القاضى العادل الذى كانت حياته مثلا حميدا فى سائر محاكم فرنسا . ولقد أدى التحية له رجال التشريع ، والمحامون ، والشباب ، والقضاة ، أدوا تحيتهم وهم فى انحنائهم خافضى الرءوس دليل الاحترام العميق ، مستعيدين صورة ذلك الوجه المهيب ، الشاحب ، النحيل ، تضيئه عينان براقتان ، فيهما عمق ولهما نفاذ .

وقف حياته على مطاردة الجريمة وحماية الضعيف . ولم يكن للقتلة والمحتالين عدو سواه ، لانه بدا كأنما يطالع فى خبايا نفوسهم أخفى وأدق أفكارهم .

مات الان فى الثانية والثمانين ، مودعا بالتبجيل والاكبار تتبعه احزان أمة بأسرها . وقد شيعه الى القبر جنود يرتدون السراويل الحمر ، ورجال يعقدون الكرافتات البيضاء . ذرفوا على ضريحه دموعا لاحت كأنها تنبع من نفوسهم . ولكن أصغ الى مافى هذه الاوراق التى وجدها المسجل الشرعى ... وجدها فى مكتب القاضى حيث كان قد حفظ التقارير مسلسلة عن كبار المجرمين .

كان عنوان هذه الاوراق ..

لماذا ؟

٢٠ يونيو ١٨٥١ — غادرت المحكمة منذ لحظات . حكمت

على «بلوندل» بالاعدام . والان، لماذا قتل هذا الرجل اطفاله الخمسة؟ كثيرا مايعرض للانسان قوم يجدون فى القتل لذة . نعم . لابد أن يكون القتل لذة لعلها أعظم اللذات . أليس القتل شبيها بالتكوين الى حد كبير ؟ التكوين والتدمير ! هاتان الكلمتان تؤلفان تاريخ الدنيا ، تاريخ العالم كله ، تاريخ كل ماهنالك ، جميعه ، لماذا لايكون القتل مغريا مسكرا؟!

٢٥ يونيو ــ لنتصور ان هناك كائنا يحيا ويمشى ويجرى . كائن ؟ ماهو الكائن ؟ انه شىء حى يحمل فى ذاته مصدر الحركة، وارادة تسيطر على ذلك المصدر ، وهو لايلتصق بشىء .. أقدامه منفصلة عن الارض .. انه حبة من الحياة تتحرك على الثرى ، ولا أعلم من اين هى آتية ، وفى استطاعة المرء ان يحطمها متى شاء .

وعندئذ ، لايبقى هناك شىء مطلقا .. انها تفنى وتنتهى !

٢٦ يونيو ــ لماذا ، اذن ، يعتبر القتل جريمة ؟ نعم ، لماذا؟ على العكس ، ان القتل هو قانون الطبيعة . انه رسالة كل مخلوق فهو يقتل ليعيش ، ويعيش ليقتل ، لايكف الحيوان عن القتل طيلة يومه ، وفى كل لحظة من وجوده . ولا ينقطع الانسان عن القتل كى يقوت نفسه . غير انه الى جانب ذلك، قد ابتكر وسائل الصيد منذ احس الحاجة الى ان يقتل كى يسعد نفسه ! يفتك الطفل بالحشرات التى يجدها ، وبالطيور والحيوانات الصغيرة التى تعترض سبيله . ولكن هذا لايشبع فينا الدافع الى الذبح ، ذلك الدافع الذى لايقاوم ، ليس كافيا ان نقتل الحيوان ، بل يجب ان نقتل الانسان ايضا . وقديما . كانت القرابين الانسانية ترضى ذلك الدافع . اما الان ، فان ضرورة الحياة فى المجتمع ، جعلت القتل جريمة ! اننا نحكم على سافك الدماء ونعاقبه ! ولكن .. لما كنا لانستطيع الحياة دون الاستسلام لتلك الغريزة الطبيعية العاتية ، تلك الغريزة التى ينتج عنها

الموت ، فاننـــا نغيث انفســنا بالحروب من وقت الى آخر . حينئذ ، تهب امة كاملة فتنحر أمة أخرى . أنه عيــد الدماء ! عيد يذهب بعقول المحـاربين ، ويفتن الرجال المدنيين والنساء والاطفال الذين يطالعون قصــة المجـزرة المحمـومة عـلى ضوء المصابيح الزيتية في الظلام . فهل لنا ان نحتقر هؤلاء المختـــارين الذين يقومون بهـــذه المجـازر البشرية ؟! كلا ، انهـم يحملون أوسمة المجد ، يرفلون في الذهب ، ويحظون بأبهى المتاع ، ويزينون بالريش رءوســهم ، وبالحـلى صدورهم . يمنحون الصـلبان وتغدق عليهم المكافآت والالقاب من سائر الالوان . انهم فخورون مبجلون ، تهيم بهم النســـاء ، وتحييهم عامة النـاس ، وذلك فقط ، لان مهمتهم هي سفك الدم البشرى . انهم يجرون معداتهم — معدات الهلاك — في الطرق ، فيقف المارة في اثوابهم السـوداء يتفرجون ، وملء نفوسهم الحسد والغيرة . وذلك ، لان القتل هو القانون العظيم الذى غرســته الطبيعة في قلب الحياة . لا يوجد شيء اجمل ولا انبل من القتل !

٣٠ يونيو — القتل هو القانون ، لان الطبيعة تحب الشباب الخالد . وهى في اعمالها التى تصدر عنها بلا وعى ، تبدو كأنهـــا تصيح « حالا — حالا — حالا » . وهى كلما اسرفت في التدمير ، راحت تبالغ في تجديد ذاتها .

٣ يوليـو — لابد ان تكون في القتل سعادة لامثيل لها ، سعادة ملؤها اللذة . حين تضع امامك مخلوقا حيا مفكرا ، وتحدث فيه ثقبا صغيرا ، لاشيء ، سوى ثقب صـــغير ، ثم ترى تدفـق ذلك السائل الاحمر ، الذى هو الدم ، والذى هو الحياة . . ! وحينئذ ، ترى امام عينيك كومة من اللحم المترهل ، باردة ، هامدة ، خالية من الفكر . . !

٥ اغسطس — انا الذى انفق حياته في تقـرير المصـــائر وفى

اصدار الاحكام ، وفي اعدام الناس بكلمات انطق بها ، وفي سوق هؤلاء الذين يقتلون بالسكين، الى الاعدام بالمقصلة ، لو أنني افعل مثلما فعل سائر السفاحين الذين حكمت عليهم بالموت ، انا — ومن الذي سيعرف ذلك ؟

١٠ اغسطس — من ذا عساه يعرف الحقيقة ؟ من ذا عساه يرتاب في امري ؛ خاصة اذا اخترت انسانا ليس لي من وراء قتله فائدة ؟

٢٢ اغسطس — لم استطع المقاومة اكثر من ذلك . قتلت مخلوقا صغيرا على مثال التجربة، وعلى سبيل البداية . لخادمي « جان » عصفور في قفص معلق بنافذة حجرة المكتب . ارسلت جان لقضاء حاجة لي . واخذت العصفور في يدي فشعرت بدقات قلبه . كان دافئا . . صعدت الى غرفتي ورحت — بين لحظة واخرى — احكم الضغط عليه شيئا فشيئا . واخذ قلبه يدق اسرع من ذي قبل ، دقا عنيفا لذيذا . وكنت اوشك ان اخنقه . ولكنني لم استطع ان ارى الدم .

حينئذ احضرت مقصا ، مقصا قصيرا للاظافر ، وقطعت عنقه بكل لطف في ثلاث اتجاهات . فغر منقاره وكافح كي يفلت مني، ولكنني قبضت عليه . . أوه قبضت عليه — وكان في وسعي ان اقبض حتى على كلب مسعور — وشهدت الدم وهو يقطر ! وبعد ذلك صنعت كما يصنع السفاحون الحقيقيون . . غسلت يدي وغسلت المقص . رششت الماء ، وحملت الجسم ، حملت الرفات الى الحديقة كي اخفيه عن الانظار — ودفنته تحت شجرة الفراولة . لن يجدوه ابدا . وفي كل يوم سيمكنني ان آكل الفراولة من تلك الشجرة . كيف يستطيع الانسان ان يستمتع بالحياة ؟ متى يعرف الناس كيف يستطيعون ذلك ؟! صاح خادمي وظن الطائر قد افلت . كيف يمكن ان يساوره الشك في شخصي ؟ آه . . !

٢٥ اغسطس ــ لابد ان اقتل انسانا .. لابد !

٣٠ اغسطس ــ وقع الامر . ولكن . ياله من شيء تافه ..! ذهبت اتريض فى غابة فرنس . وكنت افكر فى ــ لاشيء ــ لاشيء بكل معنى الكلمة . انظر . !طفل على الطريق . طفل صغير يأكل شريحة من الخبز والزبد. وقف حتى رآنى مررت ، وقال: نهارك سعيد ياحضرة الرئيس

وطرأت الفكرة على رأسى . هل اقتله ؟. واجبت قائلا :

ــ انت بمفردك ياولدى ؟

ــ نعم ياسيدى

ــ هل انت وحيد فى الغابة ؟

ــ نعم ياسيدى

وأسكرتنى الرغبة فى قتله كما تسكر الخمر . اقتربت منه فى نعومة بالغة ، واستملته نحوى مخافة ان يهرب . وفجاة قبضت عليه من عنقه . وأمسك معصمى بيديه الصغيرتين ، ثم ترنح جسده ، مثلما تترنح الريشة فوق النار ، وبعد ذلك لم يتحرك. قذفت بالجثة الى حفرة غطيتها بالاعشاب ، وعدت ادراجى الى المنزل وتناولت غدائى بشهية . ياله كان شيئا تافها !! كنت فى المساء عظيم السرور ، نشيطا ، متجدد الشباب ، وقضيت السهرة عند مدير الناحية، وقد وجدونى حاضر البديهة، ولكننى لم ار الدم . اننى لست مرتاحا

٣١ اغسطس ــ اكتشفت الجثة . وهم جادون فى اقتناص المجرم .. آه ..!

١ سبتمبر ــ القى القبض على اثنين من الافاقين . وكانت الادلة تعوزهم .

٣ سبتمبر ــ كان على الوالدين ان يزيانى . وقد بكيا .. آه .!

٦ اكتوبر ــ لم يكتشف شيء بعد. لابد أن يكون أحد المتشردين المتجولين هو الذى فعل تلك الفعلة . !



آه ! يخيل الى انني لو شهدت انصباب الدم ، اذن لكنت الان مطمئنا مرتاحا .

١٠ اكتوبر — لا يزال هناك شيء جديد . كنت سائرا على ضفة النهر بعد ان تناولت وجبة الصباح ورايت صيادا نائما تحت شجرة صفصاف . وكأن النهار قد انتصف ، وكانت هناك فأس قائمه على مقربة مني في حقـل بطاطس ، وكانما قصد ان توضع تلك الفاس من أجلي . أخذتها وعدت ادراجي ، ورفعتها مثـل الهـراوة ، وبضربه واحدة من حـدها ، فلقت راس الصيـاد ! اوه . . ! نزف الرجل هذا الشيء نزف الدم الـوردي !! وانصب الدم في الماء انصبابا لطيفا رائعا ، بعد ذلك . انصرفت عنه في خطى وئيدة متزنة . لو ان احدا رآني! كنت اذن اعتبر سفاحا اصيلا

٢٥ اكتوبر — اثبت القاضي ان المجرم هـو ابن اخي القتيـل ، وكان كل من في المدينة يعتقد ذلك ، آه . . آه . !

٢٧ اكتوبر — دافع ابن الاخ عن نفسه دفاعا واهيا ، فقرر انه كان قد ذهب الى القرية ليشتري خبزا وجبنا . وهـو يقسم ان عمه ذبح اثناء غيـابه . من ذا الذي يؤمن بقوله ؟!

٢٨ اكتوبر — صرح ابن الاخ بكل شيء غير الاعتراف . لذلك ، بذلوا الجهد الشاق حتى جعلوه يفقد راسه . . آه . . العدالة !.

١٥ نوفمبر — هنـــاك ادلة قاطعة ضد ابن الاخ الذي كان الوريث الوحيد لعمه . سوف اكون رئيس الجلسات .

٢٥ يناير ١٨٥٢ — الى الموت . . الى الموت . . لقــد حكمت عليه المحكمة بالاعـدام ! ولقد تحدث النائب العام مثلما يتحدث الملاك — آه ! لا يزال هناك شيء اخر سوف اذهب كي اراه وهم ينفذون فيه الحكم !

١٠ مارس — انتهى الامر . أعدموه بالمقصلة هذا الصباح ! مات ميتة جميله جدا . . ولقد منحني اعدامه سعادة وسرورا . ما أروع ان تـرى راس انسان وهي تبتر !

والآن لابد لى من الانتظار ، وفى مقدورى ان انتظر ، لان القبض على لم يعد يتطلب شيئا كبيرا .

* * *

احتوت مخطوطة اليوميات على صفحات إخرى ، ولكنها لم تنبىء بجريمة جديدة . وقرر اطباء الامراض العقلية الذين عرضت عليهم تلك القصة الرهيبة ، أن فى العالم مجانين كثيرين نجهلهم ، وهم فى مثل البراعة والهول اللذين اجتمعا لهذا المجنون الخطر ..



الا ، ما اغرب تلك الذكريات القديمة التى تستولى على افئدتنا وعقولنا ، فلا نستطيع ان نجد منها خلاصا . !

اننى لاسوق اليكم على سبيل المثال ، هذه الذكرى القديمة التى لم اهتد حتى اليوم الى سر التصاقها بالوعى ، طيلة ذلك الزمن ؛ لاتبرحه ابدا ، ولاتتزحزح عنه ابدا ، وانما تصر على ان تبقى فيه كما هى ، ناصعة ، واضحة كل الوضوح ، حتى لكأنها وقعت لى بالامس .

ولقد تعاقبت امام ناظرى منذ ذلك الزمن السحيق اشياء كثيرة ، ووقعت تحت مقلتى حوادث عديدة ، لم يكتب لواحدة منها سارة كانت ام محزنة — ان تعلق بذاكرتى .

لذلك ، يتولانى العجب ويتملكنى ، لان وجه الام « كلوشيت » لم ينفصل عن بصيرتى يوما واحدا منذ ذلك الزمن البعيد حتى الساعة ، لاتغيم فى ذاكرتى ملامحه ، ولا يغطى الغموض قسماته ، ولكننى اراه بعينى خيالى ، تماما ، كما كنت اراه بعينى رأسى فى ذلك الوقت الغابر ، منذ امد طويل .. طويل ، حين كنت فى العاشرة ، أو الثانية عشرة من العمر .

كانت الام « كلوشيت » خياطة عجوزا ، تأتى الى منزل والدى

مرة واحدة فى يوم الخميس من كل اسبوع : لتصلح الثياب التى تتطلب الاصلاح .

وكان والداى يقيمان فى منزل من منازل الاقاليم التى يسمونها قصورا ، ولم تكن فى الواقع ، سوى بيوت عتيقة ذات سطوح مدببة ، تلحق بها وتتاخمهـا ، ثلاث ضيعات او اربع .

وكانت قريتنا ، احدى القرى الكبيرة التى كثيرا ماتشبه مدينة تجارية صغيرة .

كانت القرية تبعـد مئـات معدودة من الياردات ، عن كنيسة عتيقة شيدت بالحجر الاحمر الذى جعلته السنين اسود اللون

وقد التفت حول الكنيسة من بعيد ، منازل القرية واكواخها ، وطوقتها من كافة النواحى .

.. تعودت الام « كلوشيت » أن تأتى الى منزلنا يوم الخميس ، بين الساعة السادسة والنصف ، والساعة السابعة صباحا ، فتتجه مباشرة الى الحجرة المعدة لها ، كى تصلح فيها الثياب ، ثم تبدأ عملها .

وكانت الأم « كلوشيت » طويلة القامة ، نحيلة العود ، تنتشر على كل اجزاء وجهها ، لحيـة من الشعر الواضح !.

كانت واحـدة من اولئـك النسوة ذوات الشعر الكثيف ، وقد ظهرت على وجههـا تلك اللحية العجيبة على غير انتظار ، وطالت خصلها وتجعدت ، حتى ليخيل الى الانسان حين يراها ، ان رجلا مجنونا هو الذى بذرها على مساحة ذلك الوجه الكبير ، وجه كلوشيت التى كانت تشبه فى هيئتها وسمتها ، جنديا من جنـود الجيش يـرتدى ثوب امرأة ..!

كان الشعر ناميا على انفها ، وتحته ، وحوله ، ناميـا على ذقنها ، ناميا على وجنتيها . !

وكان حاجباها كثيفين طويلين ، لونهما اشهب ، وهما متشابكان ،

ومنفوشان ، بحيث يبدوان مثل شارب التصق فوق محجريها ، مصادفة ، وخطأ . !

وكانت الام « كلوشيت » فوق ذلك ، تعرج فى مشيتها ، لاكما تصنع المرأة العرجاء عادة ، ولكنها كانت تشبه فى عرجها سفينة من السفائن ترتطم بالارض ارتطاما . !

وكانت حين ترفع جسمها العملاق ، العظمى ، المعروق ، على قدمها السليمة ، تبدو كأنها تتأهب لارتقاء موجة هائلة ، ثم تغطس فجأة ، فتبدو كأنها ستختفى فى احدى اللجج ، وتدفن نفسها فى الارض .

وكانت مشيتها تلك العجيبة ، تذكرنى بسفينة تتخاطفها العواصف الجائحة ، ورأسها المغطى دائما بقبعه كبيرة بيضاء تتدلى عليه من تلك القبعة شرائط طويلة ، تتأرجح على ظهرها ، فتلوح كأنها تقطع الافق من الشمال الى الجنوب ، ومن الجنوب الى الشمال ، كلما ترنحت بالمرأة على الارض ، خطوة من خطاها .

وقد كنت شديد الاعجاب بالام « كلوشيت » شديد الاكبار لها .

وتعودت حين كبرت قليلا ، ان اذهب الى الحجرة المعدة لزيارة الام « كلوشيت » كل اسبوع ، فأجدها عاكفة على العمل ، وقد وضعت تحت قدميها قطعة من السجاد .

وكانت ، حين اصل الى الحجرة تعطينى قطعة السجاد كى اجلس عليها ، حتى لا يصيبنى البرد فى تلك الحجرة الواسعة قارسة البرودة .

وكانت تقول لى :

— ان هذه الحجرة تمتص ببرودتها الدم من رأسك .

وكم من الاقاصيص والحكايات الساذجة ، قد سردتها على

مسمعي.الام «كلوشيت»،واناملها الطويلةالمعوجةتنتقل بالابرة خفيفة الحركة فى المفارش والثياب .

وكانت السنين قد أضعفت بصرها ، فغطت عينيها بنظارة سميكة ، بدت من خلفها مقلتاها ، واسعتين ، عميقتين ، تنطوى فيهما المعانى الكثيرة .

وانني لاذكر بالقدر الذى تسعفنى الذاكرة ، من بين الاشياء التى كانت تقولها لى الام« كلوشيت » ، وينفطر لها قلبى الما ، انها امراة بائسة تحمل قلبا كبيرا ..!

كانت تقص على ، حكايات القرية ، وتروى لى كيف أن بقرة هربت من الحظيرة ،فوجدوها لما طلع الصباح ، عند طاحونة « بروسبرماليت »تحملق فى شراع الطاحونة الدائرة ، وكيف أن دجاجة وضعت ذات يوم بيضة ، ثم وجدوا تلك البيضة فى قبة اجراس الكنيسة ،ولم يستطع أحد أن يعرف أى مخلوق وضع البيضة فى ذلك المكان ؟..

كانت تقص على ، قصة كلب« جين بيلا » ، وكيف ان لصا سرق سراويل « جين بيلا » ،بينما كانت معلقة لتجف خارج البيت ، وكيف قبضوا على اللص والسماء تمطر ، فقطع الكلب مائةمن الاميال ليسترجع سراويل سيده !

كانت « الام كلوشيت »تروى لى تلك المخاطرات الساذجة بطريقة خاصة ، بحيث تؤثر حوادثها فى نفسى باضعاف ماتؤثر المآسى التى لاتنسى ، وبأضعاف ماتؤثر الاشعار العظيمة الخالدة والاقاصيص الفذة التى أبدعها كبار الروائيين والشعراء ، وكانت أمى تروى لى بعضها كلما هبط المساء ، فلا تبلغ بها من نفسى ، بعض ماتبلغ حكايات المراة القروية ، ولا يكون لها من الطعم ، ما لقصص الام« كلوشيت » ..!

وذات يوم من الايام التى كانت تأتى فيها الينا الام «كلوشيت» ،

ـ وكان بالطبع يوم الخميس ، وكنت أنفقت صباحه مرهف الاذن لحديثها الطلى الساحر ـ أردت أن أصعد الى حجرتها مرة ثانية خلال النهـار ، بعد ان التقطت البندق من الغابة الممتـدة خلف المزرعة ، وكان الخادم يصحبنى

انني لاذكر ذلك جيدا ، كمالو كان وقع البارحة

لقد رأيت عندما فتحت باب الحجرة ، الام « كلوشـيت » العجوز ملقاة بجانب كرسيـها ووجهها ملتصق بالارض ، ويداها ممدودتان ، والابرة فى احـدى قبضتيها ، وفى القبضة الاخرى رأيت قميصا لى

وكان يكسو احدى رجليهـا ـ وهى اكثر طولا من الرجـل الثانية ـ جورب أزرق ، وكانت تلك الرجل تمتد تحت الكرسى

وكانت نظارتهـا تلمع جوار الحائط ، بعد ماتدحرجت عن وجهها ، واستقرت هناك .

وجريت أنا الى خارج الغرفة ، هاربا من ذلك المشـهد المؤلم ، اطلق من فمى الصرخات

واقبل الجميع على أثر صراخى مهرولين فزعين

ومرت دقائق معدودة .. ثم أخبرونى أن الام « كلوشيت » فارقت الحياة . !

لا أستطيع أن أصف لـكم ذلك الاحساس الذى نزل بقلبى ، وعمق فيـه ، وتوقد ، وملأه بالفزع ، وحركه امواجه كما تحرك الريح أمواج البحر الساكن .

وقد هبطت فى خطى بطيئـة على أثر سمـاعى ذلك الخبر ، الى حجرة الاستقبال

وهناك .. أخفيت نفسى فى ركن مظلم من اركان احد الكراسى الكبيرة العتيقة ، وركعت وعيناى تسحان الدموع .

وبقيت على حالى تلك مـدة طويلة ، لم يرنى خلالها احد ، لان الظلام كان قد غشى الكون

وقد دخل فجأة احدهم وبيده مصباح الى حجرة الاستقبال حيث كنت راكعا ابكى فى الظلام ، ولكنه لم يرنى .

وسمعت ابى وامى يتحدثان الى الطبيب الذى عرفت صوته لاول وهلة ، وكانا قد أرسلا فى طلبه مسرعين .

وقد جعل الطبيب يصف سبب الموت

ولم أفهم ساعتها مما قال شيئا .

ثم جلس الطبيب ، وتناول كوبا من الشراب الحلو ، وقطعة من الكعك

ثم راح الطبيب يتحدث حديثه الذى سيبقى فى ذاكرتى محتفرا حتى أموت

وأحسبنى فى هذه اللحظة قادرا على أن أعيد نفس الكلمات التى قالها الطبيب فى تلك الليلة

قال — آه . . يا للمرأة المسكينة .. لقد كسرت ساقها فى اليوم الذى وصلت فيه أنا الى هذه القرية

ولم يكن لدى من الوقت حتى ما أستطيع خلاله أن اغسل يدى بعد أن غادرت مركبة السفر

ذلك ، لانهم أرسلوا فى طلبى على وجه السرعة ، لان الحالة كانت سيئة غاية السوء بحيث لاتحتمل الانتظار

كانت هى فى السابعة عشرة ، فتاة جميلة باهرة الجمال

ترى ، هل يصدق احد من الناس اليوم أنها كانت فتاة جميلة باهرة الجمال ؟

ان قصتها لم تخرج قط على شفتى الى سمع انسان قبل ذلك

والحق ، أن أحدا من الناس هنا ، لايعرف قصتها غيرى أنا وشخص اخر سواى

وانني لاجدني ــ بعد أن ماتت ــ اتحلل من حرصي على كتمان قصتها ، وصون سرها

حدث فى ذلك الزمن البعيد ، أن جاء إلى القرية شاب يشتغل بالتعليم ، وكان جميل الطلعة ، وسيم الهيئة ، يبدو كالفارس الفاتن فى أعين الناظرين

وكانت الفتيات تلاحقنه فى كل مكان بنظرات الاعجاب والتودد ، وهو مترفع النظرات ، يزدرى اعجابهن ، ويجافى توددهن .

وكان ذلك المعلم الشاب الى جانب ماتقدم ، شديد الخوف من رئيسه ناظر المدرسة « جرابو » العجوز

وكانت تعمل تحت أمرة « جرابو » ورئاسته ، الفتاة الجميلة « هورتنس » ، التى ماتت هنا منذ لحظات ، فلم يكن اسم « كاوشيت » غير اسم مستعار لتلك العجوز ، اطلقته على نفسها فيما بعد

واختار المعلم الجميل الشاب المترفع ، تلك الفتاة «هورتنس» لتكون موضع اعجابه من دون فتيات القرية .

وقد اسعدها ــ بلا شك ــ أن تكون هى الفتاة التى وقع عليها اختيار ذلك المترفع قاهر النساء ..

ووقعت الفتاة فى غرام المعلم الشاب الذى استطاع اقناعها بأن تمنحه مقابلة اولى فى مخزن الحشائش الجافة ، وكان المخزن يقع خلف المدرسة

وقد تم الاتفاق بينهما على أن تكون تلك المقابلة ، بعدما يهبط المساء ، حتى تكون الفتاة قد فرغت من عملها اليومى

وتظاهرت الفتاة بعد أن تركت « جرابو » وفرغت من عملها ، بأنها ذاهبة الى بيتها ولكنها بدلا من أن تهبط الدرج ، صعدت الى أعلى ، وتوارت فى الحشائش المتراكمة لتنتظر حبيبها المعلم الشاب الجميل

وبعد لحظات ، جاء المعلم الشاب الى المكان

وجعل الشاب يحدث الفتاة حديثا جميلا ساحرا .

وفجأة : انفتح باب المخزن ، وظهر الناظر العجوز « جرابو » وقال :

ـ ما الذى تصنعه هنا يا سيجسبرت . ؟

وشعر المعلم الشاب بأن أمره أوشك أن يفتضح

وفقد الشاب حضور بديهته ، وقال قولا غبيا ـ لقد أتيت الى هنا ، لاستريح قليلا فوق أكوام الحشائش ، يا مسيو « جرابو »

وكان المخزن كبيرا واسعا شديد الظلمة

ودفع الشاب الفتاة الخائفة بعيدا ، وقال لها :

ـ اذهبى هناك .. اختفى .. اننى سأفقد مركزى .. اذهبى .. اخفى نفسك هناك

وسمع الرئيس همس المعلم الشاب ، فقال يكمل حديثه :

ـ انك لست هنا وحدك ! .

قال المعلم الشاب :

ـ بل اننى وحدى هنا يامسيو « جرابو » ..

قال الناظر العجوز :

ـ كلا .. انت لست وحيدا .. انك تتحدث الى انسان

قال المعلم الشاب :

ـ اقسم اننى وحدى هنا يامسيو « جرابو »

قال الناظر العجوز :

ـ اننى سأعرف كل شىء .. سأعرف حالا كل شىء ..

وأحكم الناظر اغلاق الباب خلفه ، وهبط ليحضر المصباح

وعند ذلك ، فقد الشاب سيطرته على اعصابه ، وفقد تفكيره ، واشتد به الغضب لأهوج ، وقال للفتاة :

ـ اخفى نفسك حتى لايجدك، حتى لاتقع عليك مقلتاه . . انك ستكونين سببا فى حرمانى من القوت .. ستحطمين حياتى كلها .. اخفى نفسك

وسمعا ـ وهما على تلك الحال ـ صوت المفتاح يدور فى ثقب الباب مرة أخرى

وهرعت الفتاة تجرى الى النافذة المطلة على الشارع ، حتى اذا بلغتها ، فتحتها فى سرعة ، وقالت لحبيبها :

ـ انك ستأتى لتلتقطنى بعدما يذهب هو

ثم .. ثم قفزت الفتاة من النافذة ، وسقطت فى الفضاء !

... ولم يجد العجوز « جرابو » احدا فى المخزن سوى المعلم الشاب ، فهبط كما صعد وقد استولت عليه دهشة كبيرة

ومضى ربع الساعة على تلك الحادثة ، وجاء الى السيد « سيجسبرت » المعلم الشاب الجميل ، وسرد على مسامعى مخاطرته

وبقيت الفتاة تحت اقدام الحائط ، وهى لاتقوى على النهوض ، لانها كانت قد سقطت الى الارض من الطابق الثانى فى البناء

وتوجهت مع المعلم الشاب الى مكان الحادث ، لنحضر الفتاة

وكانت السماء تمطر سيولا جارفة .

واحضرنا الفتاة البائسة الى منزلى ، وقد رأيت ان ساقها كسرت فى ثلاثة مواضع ، وبرزت العظام فى تلك الاماكن من اللحم

ولم تنبس الفتاة بكلمة شاكية، وانما قالت فى بساطة مؤمنة :

ـ لقد نلت جزائى

وارسلت انا فى طلب مســاعدلى ، وارسلت ايضــا فى طلــب زميلات الفتاة فىالعمل ، وسردتعلى الجميع قصة ملفقة ، وقلت ان عربة هاربة ألقت الفتاةارضا،فدهمتها خارج بيتى

وصدقنى الجميع

وظل رجال البــوليس طيــلة شــهر كامل يبحثون ويفتشون دون طائل عن مرتكب الحــادثة

. . . هـــذه هى قصـــة« كلوشيت »

واننى لارى فى تلك المرأة بطلةمن البطلات ، كمنت فيها قــوة هؤلاء الذين قاموا بأجل واعظــم الاعمال فى التاريخ

كانــت تلك هـــى تجربتهـــاالوحيدة فى الحب

ولقد ماتت عــذراء ، شهيدةمبدا من المبادىء

ماتت روحـــا نبيـــلا رفيعالاخلاص

ولو لم أكن شـــديد الاعجاب بها ، لما سردت قصتها اللحظة ، تلك القصة التى لم اطلع عليهـــاأحدا خلال حياتها ، وأنتما بــلا ريب تفهمان السبب

وكف الطبيب عن الكلام

وصرخت والدتى

وقال والدى بعــض الــكلمات التى لــم تســـتطع أذناى أن تلتقطها

ثم غادر الجميع الحجــرة ،وبقيت أنا جاثيا على ركبتى فى الكرسى الكبير ، انشج فى الظلام

وعند ذلك ، سمعت ضجة ،ولغطا ، ووقع اقدام ، وصــوت جسم يرتطم بجوانب السلم

كــانوا يحمــلون جثــة« كلوشست » . !

هل كان حلماً ؟

جى دى موباسان

أحببتها حبا مجنونا .!

لماذا يحب الانسان .؟ لماذا يحب .. ! ؟

الا ، ما اغرب ان يرى الانسان فى الدنيا مخلوقا واحدا ، وان تستولى على ذهنه فكرة واحدة، وان تعتلج فى قلبه رغبة واحدة ، وان تردد شفتاه اسما واحدا ، ينبثق دائما اليهما من اعماق الروح ، كما ينبثق الماء من قرارة الينبوع ، اسما واحدا يظل الانسان يكرره ويعيده ، ثم يكرره ويعيده ، ولا يكف عن ترديده ، ولا يفتأ يهمس به – كالعابد المتوسل فى كل مكان

ساقص عليك قصتنا فان للحب قصه واحدة مكرورة ، لا تتبدل ، ولا تتغير .

قابلتها ، وأحببتها ، وكان هذا كل ما فى الامر .

وعشت سنة كاملة انعم بحنانها وعناقها . !

عشت بين ذراعيها وفى ثيابها، وبكلماتها العذبة .!

عشت سنة كامله ، منجذبا اليها ، مبهورا بها ، منهمكا فى كل ما يصدر عنها ، موثوقا الى كل ما تاتيه ، مستغرقا فيه ، حتى لم أعد اكترث هل جاء النهار ام نزل الليل ؟ وحتى لم أعد أحس هل انا حى ام ميت على هذه الارض العجوز ؟ . ! وحينذاك ، ماتت .! فكيف ماتت .؟ هذا ما لست ادريه ، لقد اصبحت لا اعرف شيئا .!

انها جاءت البيت ذات مساء وهى مبللة الثياب ، فقد كانت السماء تمطر فى الخارج امطارا غزيرة .

وحل اليوم الثانى ، فسعلت ، وظلت بعد ذلك تسعل نحو الاسبوع ، ثم حملت الى الفراش

لا اتذكر الان مما جرى ؛ غير ان الاطباء حضروا .. وكتبوا .. وذهبوا .. !

وجئنا بالدواء ، وراحت بعض النسوة تسقيها اياه . وكانت يداها ساخنتين ، وجبهتها تحترق ، وعيناها صافيتين حزينتين . وقد اجابتنى حين خاطبتها ؛ ولكننى لا اتذكر ما قلناه ، فقد نسيت كل شىء ..! يا اله !. كل شىء .. كل شىء .!

ماتت وما زلت اتذكر جيدا زفرتها الرقيقة الواهنة .!

شهقت لحظتها المرضه ـ آه .. فعرفت انا ، وادركت .

ولم اعرف شيئا بعد ذلك ، لم ادرك شيئا ؛ غير ان قسا اتى ، وقال لى « حبيبتك » ، فخيل الى انه يسبها بهذا القول . وما دامت هى قد ماتت ، فلا يحق لاحد ان يعيد هذه الكلمة .

لذلك ؛ اخرجت القس من الدار .

وجاء قس اخر كان رحيما ، وكان رقيقا .

وذرفت انا بين يديه الدموع حين اخذ يحدثنى عنها .

فاستشارونى فى امر الجنازة ولكن ذاكرتى الان لايعلق بها شىء مما قالوا ، وبوسعى فقط ان استرجع اليها صورة التابوت ، وصوت المطرقة التى كانوا يدقون بها المسامير فى خشبه ، بعدما وسدوا الجثة داخل النعش .! اواه من تلك الذكرى ! رباه ..؛ رحمتك يا ربى .! . !

ودفنوها ، هالوا عليها التراب ، واروها تلك الحفرة .

وجاء بعض الناس ، جاءت صديقات لها وزميلات .

والتمست انا طريق الهرب وجريت .!



نعم ؛ رحت اعدو عدوا ، ثم جعلت اتمهل قليلا قليلا ، واخذت اسير فى الشوارع .

وذهبت الى البيت ، وفى اليوم التالى ؛ رحلت عن المدينة بأسرها

... ورجعت البارحة الى باريس . وقد استولت على قلبى كآبة مفاجئة قاسية حين جالت عيناى فى حجرتى - فى حجرتنا . . . ورأيت فراشنا وأثاث منزلنا ، وشهدت كل مايتبقى من حياة الكائن بعد موته فأسرنى فى قبضته حزن جديد ، وامتلكتنى رغبة عارمة فى أن أفتح النافذة وأن القى بنفسى منها الى الطريق .

ولم استطع البقاء اكثر مما بقيت امام تلك الاشياء ، وبين تلك الجدران ، التى طالما احتوتها وانغلقت عليها من قبل ، والتى تستبقى الان منها ومن بشرتها ، ومن أنفاسها ، آلاف الدقائق والذرات محتفظة بها فى ثقوبها الطفيفة غير المنظورة .

وتناولت قبعتى ملتمسا طريق لافلات من البيت ، وعند مابلغت الباب كنت قد مررت بالمرآة الكبيرة المعلقة فى الردهة ؛ تلك المرآة التى وضعتها هى هناك ؛ كى يتسنى لها قبل مغادرة البيت ، أن ترى فيها كل يوم صورتها بادية من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وأن تتأكد أمامها من جمال زينتها وحسن بزتها ؛ وان تفحص توافق ثيابها من القبعة الى الحذاء .

ووقفت قليلا أمام تلك المرآة التى كانت تعكس صورتها كثيرا ، كثيرا ، لعلها تكون محتفظة بها حتى الان .

وكنت واقفا هناك ارتجف وارتجف ، وعيناى تحملقان فى المرآة ؛ وتطيلان النظر الى زجاجها المسطح ، العميق ، الفارغ من طلعتها ، ذلك الزجاج الذى كثيرا ماأحاط بصورتها ، وكثيرا ما أمتلكها ، تماما ، مثلما كانت تحيط بها وتمتلكها نظراتى الملهوفة الولهى .

وشعرت كأننى أحببت تلك المرآة .

ولمست زجاجها فكان باردا .

أواه . ..

ياللمرآة المتذكرة الحزينة .

ياللمرآة المحترقة الهالعة . ويالقدرتها على أن تصب فى قلوب الناس سيول العذاب !

السعيد السعيد من ينسى قلبه كل شىء كان احتواه .!

والسعيد السعيد من ينسى قلبه كل الذى طاف به من قبل .!

والسعيد السعيد من ينسى قلبه كل شىء يرى فيه نفسه ، وكل شىء تنعكس عليه علته ، ويتراءى فيه غرامه . .!

يا الهى .! كم اقاسى ، وكم أكابد . ؟

وغادرت البيت واتجهت دون علم منى ، ودون رغبة واعية ، اتجهت الى المقابر .

ووجدت قبرها البسيط ، والصليب الرخامى الابيض ، وقد حفرت عليه هذه الكلمات القليلة :

لقد احبت هى ، واحبها غيرها ، وماتت .

انها هناك متوارية تحت اطباق الثرى ، ينخر فى جسدها السوس .!

ما أفظع تلك الحقيقة .!

وانكفأت على التراب ، وظللت انشج وابكى ، وجبهتى فوق الارض .

وبقيت هناك وقتا طويلا ، طويلا .!

وشهدت الظلام يهبط من الافق ، ونهضت فى نفسى رغبة معتوهة غريبة ، لعلها رغبة العاشق اليائس ، التى تستولى عليه فى مثل تلك المواقف .

لقد استبدت بى الرغبة فى ان اقضى تلك الليلة الاخيرة ، فى البكاء على قبرها ، حتى ينتهى الظلام .

ولكننى خشيت ان يرانى احد، فيمنعنى من البقاء ، ويضطرنى الى مغادرة المكان ، فكيف كان لى ان ادبر الامر .

لقد تحايلت على تحقيق رغبتى فنهضت من مكانى ، واخذت أجوس خلال مدينة الموتى ورحت امشى متنقلا فيها من ركن الى ركن ، ومن ناحية الى اخرى .

ما أصغر تلك المدينة ، اذا قورنت بالمدينة الاخرى التى نقيم فيها نحن الاحياء .!

ومع ذلك ، فما اكثر عدد الموتى عن عدد الاحياء .!

نحن الاحياء نريد منازل شاهقة الارتفاع ، نريد شوارع بالغة الاتساع ، نريد حيزا كبيرا للاجيال الاربعة التى تشهد ضوء النهار فى وقت واحد ، وتشرب الماء من الينابيع ، وتحتسى الخمر من الاعناب ، وتأكل الخبز من السهول !

ولكن الموتى لا يطلبون منا نطلب شيئا .

ان كل الاجيال السابقة ـ ذلك السلم الذى هبطت البشرية على درجاته الينا ـ لاتطمع جميعا الا فى القليل القليل !

أن الارض تستردهم اليها ، والنسيان يعفى عليهم ، ويطمسهم طامسه !

. . . وأحسست بغتة ، حين بلغت نهاية المدافن ، اننى اصبحت بين اوغل القبور فى القدم ، حيث تمتزج بعناصر التربة ، جثث أولئك الذين ماتوا منذ زمن سحيق ، وحيث تأكل كل شىء حتى الصلبان ، وحيث يحتمل أن يفد قوم جدد عند الصباح

وكان المكان مليئا بالزهور المهملة ، وباشجار السرو الفارعة السوداء ، يضم حديقة حزينة جميلة ، تقتات باللحوم البشرية

وكنت وحيدا كل الوحدة ، فقعدت القرفصاء على فرع شجرة خضراء ، وأندسست متواريا بين أغصانها الكئيبة الغليظة

وانتظرت ملتصقا بجذع الشجرة ، كما يلتصق الغريق دمرت سفينته ، بلوح من خشبها المتناثر ، حتى اذا ادلهم الليل ،

تركت ملاذى ، ورحت انقل خطاى ناعمة ، بطيئة ، خافتة الوقع خلال تلك الارض الغاصة بالموتى

وتجولت هناك طويلا ، ولكنى لم استطع الاهتداء الى مقبرتها مرة ثانية .

وواصلت السير منشور الذراعين ، ادق المقابر بيدى ، وأدقها بقدمى ، وأدقها بركبتى وبصدرى ، وادقها حتى برأسى ، ولكن كل هذا ذهب ادراج الرياح ، فلم استطع ان القاها

واخذت اتحسس كالاعمى يلتمس طريقه مستأنيا ، فكانت تعترضنى الصخور ، والصلبان والاسوار الحديدية ، والاكاليل المعدنية المعدة للزهور ، وباقات الورد الذابل

وقرأت الاسماء بأناملى ، بامرارها على الحروف .

يالها من ليلة ليلاء ، ويالى منها !.

لم استطع ان اهتدى اليها ثانية .!

يالها من ليلة ليلاء ، كان الظلام فيها شديد الاعتكار ، والسماء حالكة الوجه ، فارغة من اضواء القمر ، فدهمنى الرعب ، بل أننى كنت اتثلج فرط الهلع ، وانا انقل خطواتى فى تلك الممرات الضيقة بين صفين من القبور !

وكانت تحيط بى القبور ، ولا شيء غيرها ، من كل الجهات ، القبور امامى ، والقبور خلفى ، والقبور الى اليمين ، والقبور الى اليسار !

وجلست على احد تلك القبور لانى أصبحت لا أقوى على المسير فقد وهنت ركبتاى ، وضعفتا ضعفا شديدا .

وسمعت ضربات قلبى وسمعت شيئا آخر غيرها

ترى ، ما هو ذلك الشيء ؟

انها اصوات غامضة لا يمكن تسميتها !.

هل انبعثت تلك الاصوات داخل راسى ، ام فى ذلك الظلام المكتوم ، ام انها تنبعث صاعدة من تحت الارض المليئة بالاسرار ، المزدحمة بالجثث ؟!

ونظرت الى كل شيء حولى ، ولست أستطيع أن أحدد الوقت الذى انفقته على تلك الحال .

وقد اصابنى الرعب بمايماثل الشلل ، وبما يشبه التثلج ،

وجعلنى على وتسك ان اصرخ مستغيثا ، على وشك ان اموت!

وفجأة خيل الى ان اللوح الرخامى الذى كنت قد اتخذت منه مقعدا ، اخذ يتحرك .!

حقا ، انه كان يتحرك ، كأنه قد رفع الى اعلى ، فانحنيت انا ، وقفزت الى المقبرة المجاورة، وشهدت ، نعم شهدت فى وضوح ويقين ، الحجر الذى وثبت عنه ، يرتفع الى اعلى، ويستقيم!

وعندئذ ، ظهر الميت ، هيكلا عظميا ، عاريا ، ودفع الحجر بظهره المحدودب .

وقد استطاعت عيناى ان تميزا كل شيء ، ولو ان الظلام كان دامسا .

وكان بوسعى ان اقرأ المكتوب على الصليب :

هنا يرقد جاك اوليفانت . مات فى الواحدة والخمسين . احب عائلته ، وكان رحيما ، شريفا ، فقضى متمتعا برحمة الله وغفرانه .

وقرأ الرجل الميت ايضا ما حفروه على شاهد مقبرته ، فالتقط حجرا من الممر : حجرا صغيرا مدبب الطرف ، وأخذ يشطب الحروف بعناية بالغة ، حتى طمسها تماما على مهل ، وراح ينظر بتجويف محجريه الى الموضع الذى كانت فيه الكلمات محتفرة .

وعند ذلك كتب الميت بطرف العظمة التى كانت أنملة من انامله ، كتب بحروف واضحه جلية تماثل الرسوم التى ينقشها الصبية على الحوائط بأطراف اعواد الثقاب ، كتب مايلى :

هنا استكن جاك اوليفانت الذى مات فى الواحدة والخمسين لقد استعجل بقسوته حتف والده ، طمعا منه فى الميراث ، وقد عذب امرأته وأرهقها ، وأزعج أطفاله ونغص عيشهم ، وقد غش جيرانه وخدعهم ، وقد سرق كل ماوقعت عليه يده ، ومات بعد ذلك منكودا شقيا .

وحين فرغ الميت من الكتابة ، وقف دون حراك ينظر الى ماصنع واستدرت حولى ، فرأيت كل المقابر فتحت ، ورأيت كل الموتى

يخرجون من تحت الارض ،ورأيت الهياكل البشرية جميعا ، تطمس الاكاذيب التى حفرها الاقارب على شواهد القبور ، تطمسها وتستبدل بها الحقائق المخفية .

واكتشفت ان جميع الموتى قد عذبوا جيرانهم ، وانهم جميعا كانوا جبناء ، خونة ، منافقين كذابين ، مختالين ، نمامين ، حاسدين ، وانهم جميعا ، قدسرقوا ، ... نهبوا ، وقد غشوا وخدعوا ، وقد ارتكبوا كل عار ،وأتوا كل شائن ، واقترفوا كل عمل شنيع ، نعم ، لقد اتضحت الان حقيقة هؤلاء الآباء الطيبين ، والزوجات المخلصات ، والابناء الاوفياء ، والبنات العفيفات ، والتجار الأمناء ، والنسوة والرجال ، الذين كان المرء يناديهم بالشرفاء الاتقياء ، لم يمسسهم العيب .

كانوا جميعا يكتبون فى نفس الوقت ، على مداخل مساكنهم الابدية ، الحقيقة المرعبة المقدسة، التى لم يعرفها احد ، والتى تتلخص فى انهم كانوا أغبياء ،أدعياء ، حين كانوا يعيشون على الارض !

واعتقدت أنها - هى - أيضا قد كتبت شيئا على شاهد قبرها ، فعدوت ، لايساورنى الخوف بين المقابر المخيفة ، وخلال الجثث والهياكل البشرية، ويممت نحوها ، وكنت موقنا اننى سالقاها فى الحال .

وعرفتها ، استطعت ان اميزها لاول وهلة ، دون حاجة الى مشاهدة وجهها الذى كان يغطيه الكفن ، وقد كنت طالعت من قبل ، على شاهد قبرها :

لقد احبت هى ، واحبها غيرها ، وماتت .

ولكننى قرات تلك اللحظة ،ماكتبت هى بيديها :

خرجت فى يوم مطير ، لتخون حبيبها فاصابها البرد ، وماتت ويبدو انهم وجدونى مستلقيا على المقبرة ، فاقد الوعي ،عندما ترقرقت دموع الفجر فى السماء

الأخذ بالثأر

جي دي موباسان

كانت أرملة باولو سافريني تعيش مع ولدها في دار صغيرة متواضعة علـى حصـون بونيفاسـيو . وكـانت المدينة قائمة على جانب من الجبـل ، وتلوح معالمها كأنها معلقة فوق البحر ، وتشرف خـلال مضـيق مغطى بالصـخور ، على أكثر نواحي « ساردينيا » انخفاضا . وكان عند أقدام المدينة على الجانب الاخر ، قطع في الصخر يمـاثل دهليزا للشياطين ، وهو يحيط بكل نواحي المدينـة تقريبـا ، ويتخـذ ميناء للسفن . وكان يفضي الى أول المنـازل القائمة فوقه (بعد دورة طويلة بين وعورة الحائطين) . وكانت هناك أيضا قوارب الصـيد الصـغيرة الساردينية أو الايطالية ، وكان يرى كل أسـبوعين ، المركب البخاري العتيق حطيم الرياح ، الذي يسير من تلك الناحية الى أجاشيو ذهابا وايابا .

ويتألف من حلقـة المنـازل الواقعة فوق الجبل الابيض مكان أكثر بياضا ، وتبدو تلك الدور كأنها أعشاش الطيور الكاسرة ، وهي ثابتة فوق الصخور ، حيث تطل على ذلك الممر المخيف الذي لا تجسر السـفن على المخـاطرة بالسير فيه ، وكانت الريح التي لا تهدأ ، كأنها تتحرش بالبحر ، وتتحرش بالساحل العاري وهي تسفي على وجهه ، حتى تلقى بعض النبات الضئيل ، فتندفع الى المضيق حيث تعري جانبيه . وكـان شريط الزبـد الابيض ،

تجذبه تلك النقط السوداء التى تلوح فوق الصخور العديدة ، وهى تطعن الامواج فتبدو كأنها قضمات فى ثوب سابح يخفق على وجه الماء .

ويلتصق منزل أرملة سافرينى بحافة الصخرة حيث تطل نوافذه الثلاث المفتوحة على ذلك الافق المقفر الموحش .

وكانت تعيش وحيدة مع ابنها انطوان وكلبهما سيميلانت ، وهو حيوان ضخم نحيل ذو شعر طويل خشن ، وكان من نوع الكلاب التى تكلف بحراسة الماشية .

وفى ذات مساء ، قتل انطوان سافرينى غيلة عقب مشاجرة ، طعنه فيها بالسكين نيقولا رافولاتى وولى هاربا فى نفس الليلة الى ساردينيا .

ولم تبك المرأة العجوز حين تسلمت جثة ولدها التى حملها اليها بعض المارة ، ولكنها ظلت وقتا طويلا لا تتحرك من مكانها ، وهى تنظر الى الجثة . وبعد ذلك ، مدت يدها المتغضنة فوق الجسد الميت وقررت ان تنتقم . ولم ترغب فى ان يمكث معها أى انسان ، فأغلقت الباب على نفسها مع الجثة والكلب . وعوى الكلب .

وارتفع عواء الحيوان متصلا مستمرا عند أقدام السرير ، وامتد رأسه نحو سيده ، وطوى ذيله بين رجليه الملتصقتين . وظل الكلب بلا حركة مثل الام ، التى علقت بصرها بالجثة ثم راحت — وهى تحملق فيها — تذرف الدمع السخين .

وكان الشاب يبدو كأنه نائم ، وهو مستلق على ظهره ، ومرتد سترة رمادية ملطخة بالدماء حول صدره . وكان الدم فى كل مكان على قميصه ، وقد اندفق فى اللحظات الاولى من مصرعه على صديريته وسرواله وفوق وجهه ويديه . وكانت الكتل الدموية الصغيرة قد تجمدت فى لحيته وشعره .

وأخذت الام العجوز تخاطبه ، وظل الكلب ساكنا عندما راحت تتكلم

قالت : « تعال .. تعال .. سوف يؤخذ بثأرك يا وحيدى، ياولدى المسكين . نم .. نم .. سوف يؤخذ بثأرك . الاتسمع؟!»
« انها أمك التى قررت ذلك .. وهى تحرص دائما على ماتقول . أليس كذلك كما تعلم جيدا يابنى ؟ ! »

وانحنت الام فوقه انحناءة رقيقة، وألصقت شفتيها الباردتين بفمه الميت . وحينئذ أخذ الكلب يعوى مرة ثانية .. ارسل عواءه المديد أليما رتيبا ، مفجعا مرعبا ، ! !

وهكذا ظلوا حتى الصباح ، الجثة ، والمرأة ، والكلب !

ودفن أنطوان فى اليوم التالى، وسرعان ما انقطع الحديث عنه فى بونيفاسيو . ولم يترك انطوان اخا شقيقا ، ولم يكن له أحد تربطه به قرابة أكيدة ، ولارجل يعنيه الاخذ بثأره . فقط . . كانت الام العجوز وحدها هى التى تشعل رأسها بالانتقام .

وكانت المرأة كل صباح وكل مساء، ترى على الجانب الاخر للمضيق، نقطة بيضاء على الساحل . وكانت تلك النقطة هى قرية (لونجوساردو) من قرى ساردينيا ، وكانت تلك القرية ملاذا يعتصم به قطاع الطرق القورسيقيون كلما اشتدت خلفهم المطاردة ، وكان هؤلاء اللصوص يؤلفون غالبية سكان تلك القرية الواقعة أمام شاطىء موطنهم الاصلى ، وينتظرون فيها تلك اللحظة التى يرجعون بعدها الى العمل فى البحر ، وقد علمت الام ان نيقولا رافولاتى آوى الى تلك القرية لائذا مستعصما .

وكانت تجلس خلف النافذة وحيدة منفردة طوال اليوم ترنو ببصرها الى تلك القرية النائية، وهى تفكر فى الانتقام ! كيف تستطيع أن تحقق ذلك دون مساعدة أحد ، وهى الضعيفة المشفية على الموت؟ ولكنها وعدت أن تثأر .. أقسمت على جسده الخالى من الحياة . وليس بوسعها أن تنسى ، ولا من حقها ان تتردد . كيف يمكنها ان تنجز ذلك ؟ انها لاتستطيع ان تنام الليل ، وانها الى جانب ذلك لاتعرف الاستقرار ولا الامن

بل كانت دائبة البحث عن وسيلة لتنفيذ الانتقام . وكان الكلب يرقد عند قدميها ويرفع رأسه بين الحين والحين ثم يعوى فى الفضاء . وكان الكلب يعوى منذ غاب عنه سيده ، وكأنه يناديه الى العودة ، او كأن روح ذلك الحيوان الذى لا يعرف العزاء طريقا اليه ، قد طويت على ذكرى سيده التى لا تقوى على محوها الايام .

وذات ليلة ، والكلب يعول اعواله المألوف ، خطرت للام فكرة ضارية منتقمة وحشية ، ظلت مستولية عليها حتى الصباح . وغادرت الام فراشها عندما اقترب النهار وحملت نفسها الى الكنيسة وادت الصلاة وهى طريح فوق الارض ثم توسلت الى الله ضارعة ان يهبها العون والقدرة على الاستمرار ، وان يمنح جسمها الواهى من لدنه القوة الكافية حتى تستطيع ان تثأر لابنها القتيل .

وعادت الام بعد ذلك ، وكان لديها برميل فى صحن البيت ، نزع غطاؤه لتتجمع فيه المياه الساقطة من الميازيب ، فأفرغته وقلبته على جانبه ، وثبتته فى الارض مستعينة فى ذلك بالعصى والاحجار ، وقيدت بعد ذلك فى فجوته سيميلانت ، ثم دخلت الى المنزل . وظلت تذرع ــ دون راحة ــ ارجاء غرفتها وعيناها مثبتتان على ساحل ساردينيا . ان ذلك السفاح مختبىء هناك . وكان الكلب يعوى سواد الليل وبياض النهار . ولم تكن المرأة تحمل اليه كل صباح مرقا ولا خبزا ، ولكن اناء ممتلئا بالماء فقط . وانساب النهار ، وأغفى الكلب ، بعد ان اوهنته حاجته الى الطعام . وفى اليوم التالى ، كان يجذب سلسلته فى يأس شديد ، وقد برقت عيناه وقب شعره . وقد ظلت المرأة العجوز مع ذلك ممتنعة عن اعطائه الطعام ليأكل . وانقلب الكلب وحشا يرسل عواءه فى صوت ابح ، وهكذا انصرم الليل ، وعندما سطعت انوار الصباح ، ذهبت الام الى منزل احد جيرانها ، ورجته ان يعطيها حزمتين من القش ،

واخذت بعض الثياب القديمة التى كان يرتديها زوجها ، وملأتها بالقش كى تبدو فى هيئة الانسان ، وقيدت الدمية الى عصا غرزتها فى الارض امام الكلب ، بحيث تلوح كأنها انسان واقف ! وصنعت بعد ذلك للدمية شكل رأس من القماش القديم ، واستولت الدهشة على الكلب وظل ساكنا وهو يتأمل ذلك الرجل المحشو بالقش ولو ان الجوع يكاد يفترسه افتراسا ، ثم ذهبت الى محل القصاب واشترت شريحة طويلة من اللحم وعادت الى الدار حيث اشعلت فى فنائها النار لتنضج فوقها تلك الشريحة . وحينئذ ، اضطرب الكلب، وراح يقفز فى مكانه ، وقد طفح الزبد على شدقيه ، وسدد بصره الى اللحم الذى اخذت رائحته تغزو معدته ؛ وبعد ذلك صنعت المرأة من الشريحة والدخان يتصاعد منها ، (كرافتة) احاطت بها عنق الدمية ، ولفت الشريحة حول العنق عدة مرات ، بحيث جعلتها كأنها تحز فيه ، ثم فكت اسار الكلب بعد ان اتمت ذلك العمل . وقفز الكلب ، عندئذ ، قفزة هائلة وصل بعدها الى الدمية ، وانشب اظافره فى اكتافها ، واعمل اسنانه فى رقبة الدمية تمزيقا !! وارتد الكلب وفى فمه قطعة من لحم الفريسة، ثم قفز نحوها مرة اخرى ،وغرز اسنانه فى اللحم منتزعا بعض القطع من ذلك الغذاء ؛وارتد مرة ثالثة هجم بعدها على الرجل المحشو بالقش هجمة عنيفة شديدة ، وقطع الوجه بلطمات فكيه القويتين ومزق الرقبة كلها الى قطع مهلهلة . ونظرت المرأة الى ذلك وهى صامتة ساكنة ، وقد ضاءت عيناها البراقتان ، ثم قيدت الكلب مرة اخرى ، وحبست عنه الطعام يومين ، وكررت فعلتها تلك ، الغريبة ، الشاذة ! وقد عودت الكلب ذلك النوع من الصراع ثلاثة اشهر ، عودته الا يظفر بالطعام الا بالانياب والاظفار، ولم تعد تقيده بعد ذلك ، وكانت تستعديه على الدمية بالاشارة والايماء وحدهما ، وقد عودته أن يمزق ذلك الانسان المحشو بالقش وأن يقطعه دون أن



تحيط رقبتـه بشيء يؤكل ! !وكانت تعوضه عن عمله بعدذلك باطعامه الشريحة التى طهتهامن اجله ، وكان الـكلب حين يلمح الدمية يأخذ فى العواء ، ثم يدير عينيه الى سيدته ، التى كانت تصيح به فى صوت متهدج قائلة : اذهب . . ومشيرة بأصبعها فى الوقت عينه الى مكان الدمية .

وعندما أحست الام بأن الوقت قد حان ، ذهبت الى الكنيسة وهى فى فـورة شـديدة من الحماس كى تعتـرف وتتناول السر المقدس ، وارتدت بعدذلك ملابس الرجال حتى بدت فيها كأنها شيخ متهالك . ثم قصدت الى احد صيادى السـمك ، فحملها ومعها كلبها الى الجانب الآخر من المضيق ، وكانت تضع قطعة كبيرة من اللحم فى جـوال تحمله ، وكانت قد حبست عن الكلب طعـامه يومين كاملين ، وجعلت الكلب بين آونة واخرى يشم رائحة اللحم المغرية محاولة بذلك ان تثيره .

وبلغت قرية « لونجوساردو » فدخلت احدى الحانات وتناولت فيها بعض الخمر ثم سألت احد الخبـازين اين يعيش نيقـولا رافـولاتى ؟ وكان نقـولا قداستأنف عمله القـديم ، وهو النجارة ، وكان يعمل بمفرده فى مؤخرة حانوته . وفتحت المرأة العجوز الباب منادية ! ايه . . يانيقولا !! والتفت نيقولا حوله ، فأطلقت عليه الكلب وهى تصرخ : عليك به . . التهمه . . التهمه .

والقى الكلب الثائر بنفسـه فوق الرجل وانشب فى عنقـه اظافره ، ومد الرجل ذراعيـه وزم قبضـتيه وتدحرج فوق الارض ، وظل يتلوى بضع دقائق وهو يضرب الارض بقدميه ثم كف عن الحركة والكلب يعمـل اسنانه فى عنقه حتى احالها الى قطع مهلهلة !!

ويذكر جاران كانا جالسين امام منزليهمـا ، انهما شـاهدا رجلا مسنا يخرج من الحانوت وبصحبته كلب اسود كان يأكل شيئا قاتم اللون ينـاوله اياه سيده .

وعادت المرأة العجوز فى ذلك المساء الى دارها ، ونامت تلك الليلة نوما طيبا هنيئا ..

المرأة المجنونة

لجي دي موباسان

قال السيد « دي اندولين » لبعض اصدقائه ، وقد انتظمت جمعهم احدى الجلسات فى حجرة التدخين بسراى البارون دي راموت :

— بوسعى ان اسرد عليكم قصة رهيبه حول الحرب الفرنسية البروسية :

كنت اقيم حين جاء البروسيون بمنزلى الذى تعرفونه فى « الفابورج دى كورميل »

وكانت تجاورنى امراة تمثل نوعا من النسوة المخبولات ، عدمت حواسها على اثر سلسلة من المصائب التى نزلت بحياتها ، المصيبة تلو الاخرى .

كانت وهى فى السابعة والعشرين من عمرها ، قد فقدت اباها ، وزوجها ، وطفلها حديث الولادة . فقدتهم جميعا خلال شهر واحد .

وكذلك الموت ، فانه اذا دخل احد المنازل مرة واحدة ، كثيرا ما يعود اليه مباشرة ، يعود بخطى ثابتة ، كانه قد عرف الطريق من قبل .

وحملت المراة الشابة الى فراشها وهى غريقة فى همها ، وظلت تهذى هذيانا ستة أسابيع متصلة .

ثم حل بها عقب تلك الازمة القاسية ، نوع من الاسترخاء الهامد ، بقيت معه بلا حراك ، لا تكاد تطعم شيئا ؛ ولا تكاد تقوى على شيء ، اللهم الا ان تجيل مقلتيها فى ارجاء المكان

وكانت تصيح فى كل مرة يحاولون فيها أن ينهضوها من الفراش ، وتطلق صرخاتها فى وجوههم ، كأنما هم على وشك ان يقتلوها !

لذلك لم يكن هناك بد فى النهاية ، من أن يتركوها دائمة البقاء على الفراش الا فى اللحظات التى كانوا يحملونها فيها ليغسلوا جسدها ، او فى اللحظات التى يبدلون فيها فراش السرير واغطيته .

وبقيت الى جوارها خادم عجوز ، لتعطيها شيئا تشربه ، او قطعة من اللحم البارد بين الحين والحين .

وقد ظلت المرأة الشابة لا تنفرج شفتاها عن كلمة واحدة ولا يعلم أحد ما كان يطوف بعقلها اليائس !

هل كانت تفكر فى الذين قدماتوا .؟

هل كانت تحلم الاحلام الحزينه دون ان تحدد ذاكرتها شيئا مما قد جرى ؟

ام ان ذاكرتها قد ركدت ؛ مثلما تركد المياه لايحركها التيار؟

ومهما يكن الذى اصابها فانها ظلت على هذه الوتيرة ، هامدة فى عزلتها ؛ خمسة عشر عاما .

واندلعت الحرب ، فوصل الالمان الى كورميل فى اوائل شهر ديسمبر .

استطيع أن اتذكر ذلك جيدا كأنه وقع بالامس .

كان الصقيع لشدته كافيا لان يفتت الصخر .

وكنت مستلقيا فى كرسى كبير غير قادر على الحراك لشدة أوجاع مفاصلى ، حين سمعت لاقدامهم وقعا رتيبا ثقيلا ؛ واستطعت ان اراهم من خلال نافذتى وهم يمرون .

وقد جاءوا الصف وراء الصف ولاح لى ان جموعهم لا يحصرها حصر ، ولا تحدها نهاية .

وكانوا يهتزون فى مشيتهم تلك الهزة التى عرفوا بها ، مثلما تهتز اللعبة ربطت الى الاسلاك فى ايدى اللاعبين .

واخذ القواد يوزعون على رجالهم بطاقات الايواء التى تخول لهم مساكنة الاهالى فى منازلهم ؛ وكان نصيبى ان يضم بيتى منهم سبعة عشر جنديا .

اما جارتى ، المراة المجنونة ، فقد ضمت دارها اثنى عشر جنديا كان بينهم رئيس عسكرى بادى القسوة متجهم الوجه ، متكلف العظمة .

وقد جرى كل شىء فى مجراه الطبيعى خلال الايام القليلة الاولى . واخبروا الضباط فى البيت المجاور ، ان جارتى مريضة وانهم لا ينبغى ان ينزعجوا لذلك

ولكنهم اغتاظوا من تلك المراة التى لم يروها مرة واحدة . وسالوا عن مرضها : فقيل لهم خمسة عشر عاما قد انصرمت على بقائها فى سريرها : عقب حزن رهيب جلل حياتها

ولا ريب فى ان الضباط لم يصدقوا ما قيل لهم ، وظنوا ان تلك المخلوقة التعسة المجنونة : لا تغادر فراشها كبرياء ، كى لا تقترب من البروسيين ، وكى لا تحادثهم : بل حتى كى لا تراهم

واصر رئيسهم على أن تنهض المراة لاستقبالهم ، وشوهد فى الغرفة وهو يقول لها بلهجة خشنة :

- ينبغى ان ارجوك ، كى تنهضى ايتها السيدة ؛ وكى تهبطى الى الطابق الارضى ؛ ليتسنى لنا جميعا ان نراك .

ولكنها لم تزد على ان تجيل فيه عينيها الغامضتين ، دون أن تنبس بكلمة .

وعندئذ : اردف الرجل :

- اننى لا احتمل الصبر على اية وقاحة .

واستطيع اذا لم تنهضى من تلقاء نفسك أن أجد الوسيلة التى تجعلك تمشين على قدميك دون أقل معاونة .

ولكن المراة لم يظهر على وجهها تعبير يدل على انها قد سمعت ما قال الرجل .

وهاج الضابط وثار ، وحسب صمتها علامة لاحتقارها الشديد له ، فاضاف :

ـ انك ان لم تنزلي الى الطابق الارضي في الغد ..

ولم يكمل جملته ، وانما غادر الغرفة هائجا .

وفي اليوم التالي ، ارادت الخادم العجوز ان تبدل ثياب سيدتها ، ولكن المراة المجنونة ، راحت تصرخ صرخات رهيبة ، وتقاوم الخادم بكل ما ادخرت من القوة .

وجرى الضابط وهو يصعد السلم في هدوء ، فالقت الخادم بنفسها على قدميه ، وصاحت :

ـ انها لن تنزل الى الطابق الارضي يا سيدي ، لن تنزل .. سامحها ياسيدي ، فانها قعيدة الاحزان .

واحتار الضابط حيرة شديدة : لانه بالرغم من غضبه ، لم يجرؤ على أن يصدر الامر الى جنوده بان يجذبوا المراة الى الخارج .

ولكنه فجأة ، أخذ يقهقه ، ثم أصدر بعض أوامره باللغة الالمانية وشوهدت على أثر ذلك فرقة من الجنود تحمل فراشا ، كما لو كانت تحمل رجلا جريحا !

وأرقدوا المرأة وهي ساكنة على ذلك الفراش الذي لم يتفكك ، فرضخت لما ارادوا ، لانها كانت لا تهتم بشيء مما يحدث ، ما داموا قد تركوها ترقد كما هي !

وكان يقف خلفها احد الجند ، وهو يحمل حزمة من ثياب النساء . وقال الضابط وهو يفرك يديه :

ـ سنرى الان اذا كنت لا تستطيعين القيام بتبديل ملابسك ، والسير على قدميك في نزهة قصيرة

وفي تلك الاونة ، مشى البروسيون بالمرأة في اتجاه الغابة « غابة ايموفيل » .

ورجع الجنود وحدهم بعد ساعتين

ومنذ تلك اللحظة ، لم يشهد احد المراة المجنونة ، ولم يسمع احد عنها شيئا .

بل لم يعرف احد من الناس ما الذى صنعوه بها ، ولا الى اى مكان حملوها ؟!

وكانت الثلوج تتساقط فى النهار ، وتتساقط فى الليل ، حتى غطت السهول والغابات باكفان من الصقيع المتجمد .

وانطلقت الذئاب من مكامنها ، واخذت تعوى على مقربة من منازلنا .

وقد ازعجنى - خلال تلك الاثناء - التفكير فى المراة المسكينة وتقدمت بعدة التماسات الى السلطات البروسية لعلهم يزودوننى ببلاغ او بيان عن المراة .

ولكن المساعى التى بذلتها ذهبت كلها ، دون جدوى ، بل انها قد اوشكت ان تسبب قتلى

وعاد الربيع الى الحياة ، فانسحبت مع بواكيره ، جيوش الاحتلال ، وظل بيت جارتى مغلقا ، فى حين نمت الحشائش الكثيفة وطالت فى ممرات الحديقة .

وقد ماتت الخادم العجوز خلال فصل الشتاء

ولم يبذل احد من الناس اقل الجهد ، كى يقف على حقيقة ما جرى للمراة المجنونه

كنت انا وحدى الذى لم يتحول تفكيره عنها

ما الذى صنعه البروسيون بها ؟

هل تراها هربت فى الغابة ؟

ام ان احدا من الناس لقيها فحملها الى مستشفى من المستشفيات ، ولم يستطع ان يقف منها على بيان اسمها وحالها



وهكذا بقيت محيرا : لا اجد شيئا احسم به شكوكى .

ولـكن الـزمن راح يخفف بالتدريج مخاوفى .

.. وجاء الخـريف ، وكانت طيور الغابه وافرة كثيرة ، وقد فارقتنى الى حين الآم مفاصلى، فسحبت نفسى طيلة الطريق انى الغابة .

وكنت قد اسقطت اربعه او خمسة مـن تلك الطيـور ذات المناقير الطويلة ، حين صـوبت بندقيتى الى طائر اخر فسقط فى حفرة مليئة بالاغصان .

ووجـدتنى فى تـلك اللحظة مرغما على النزول فى الحفرة ، لالتقط الصيد : فرايت انه قد هوى بالقرب من رفات بشرى

وتذكرت فى الحال ، تلك المراة المجنـونه ، وقـرعت صـدرى ذكراها كما تقرع اللطمة

الكثيرون قد ماتوا فى العـام الماضى الذى فاض بالنكبات

ولكننى لم اعـرف لماذا كنت موقنـا ، كنت موقنا كما اقول لكم ، اننى سأشاهد رأس تلك المجنونة البائسة

وبغتة عرفت ، وحدست كل شيء ..

لقد تركهـا البروسيون على الفراش فى الغابه المهجورة الباردة .. فهلكت المرأة تحت غطاء الثلج الكثيف تـارة ، والخفيف تـارة اخـرى ، هـلكت وهى اسـيرة الفكرة الثابتة التى تمكنت منها، دون ان تحرك قدميها او ذراعيها

والتهمتها بعد ذلك الذئاب ، ومزقت الطيور فراشها، واقامت من صوفه اعشاشها !

واخبرت عن مكان تلك الرفات

وحسـبى الان ، ان اصـلى واضرع الى الله ، الا يرى اولادى ابدا ، حـربا من الحـروب مرة ثانية !

القضاء على الجشع

إن الأسعار التي يقدمها
الطرابيشى
لعملائه فى هذا الموسم
كفيلة بأن تقضى على
موجة الغلاء التى تجتاح
السوق التجارى



لذلك قد استوردت محلات

الطرابيشى !

بشارع فؤاد الأول ت ٧٧٧٣٥ والغورية ت ٧٧٧٣٦

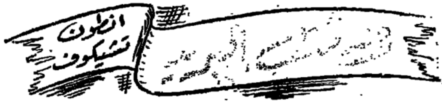
أحدث تشكيلة من الأقمشة الشتوية الرجالى والحريمى والأولاد
وكذا أصواف وحراير وأقطان وخردوات ومفروشات وأحذية
مع مجموعة من البلاطى والتايرات والبلوفرات بأسعار لا مثيل لها

انطون تشيكوف

فى ١٧ يناير عام ١٨٦٠ ولد انطون تشيخوف فى مدينة تاجنروج وقد نزح عنها فيما بعد الى موسكو حيث التحق بكلية الطب ، وفى عام ١٨٧٩ الزمته الظروف البائسة ـ وهو لم يزل طالبا .. ان يعول اسرته ، فاستهل حياة القلم بالكتابة للصحف الهزلية ، وقد افادته دراسه الطب فى عمله الادبى ، فاوسعت ـ على حد قوله ـ مدى الملاحظة عنده ، وتوالى انتاجه بعد ذلك خصبا غزيرا ، فكتب الاقصوصة والمسرحية والرواية ، ويعتبر تشيخوف وجى دى موباسان اخلد كتاب القصه القصيرة عبقرية واعجازا

وفى ٢ يوليو عام ١٩٠٤ مات القصصى العظيم مسلولا فى « باد نويلر » بالمانيا ، ولم تكن قد مضت على زواجه اربع سنوات ، ونقل جثمانه حيث وورى التراب فى موسكو ، وبعد مرور ٣٥ عاما على وفاته ، نقلت الحكومة الروسية رفاته الى مقبرة خاصة اقامتها فى «حديقة الكرز» وهو الاسم الذى اطلقه على اخر مسرحياته .

وينفرد تشيخوف بميزة فنية كبرى ، هى قدرته على وضع حياة كاملة فى اطار منسق صغير



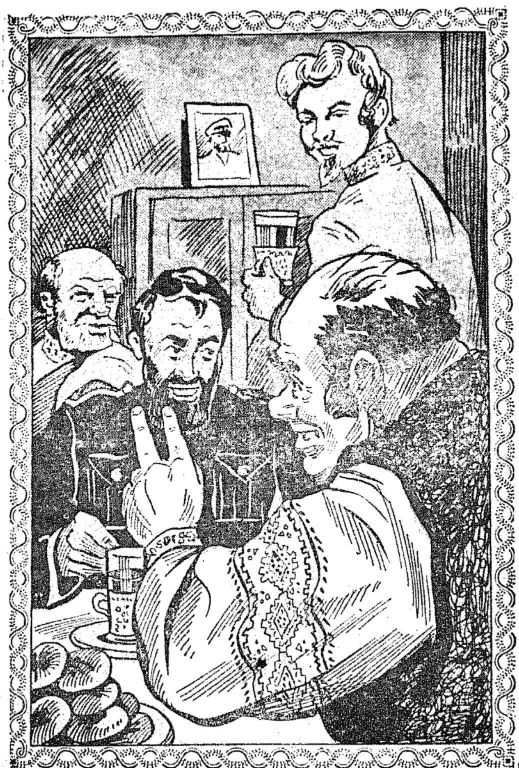
ذهبنا فى ذلك اليوم الى جنازة حرم « سلادكوبرزوف » مامورنا العجوز فى مكتب البريد . وبعدما دفنت السيدة ؛ اجتمعنا — فى دائرة البريد — كى نحيى ذكراها جريا على تقاليد آبائنا واجدادنا . فلما وضع الكعك على المائدة ، صاح الارمل الكهل بمرارة وقال :

— ان هــذه الكعكات ورديــة اللون .. تمــاما مثلما كــانت زوجتى .. جميــلة مثلما كانت زوجتى ..

قالت الجماعة متفقة :

— هذه حقيقة .. لقد كانت فى أعلى مراتب الجمال .

— نعم .. كــان يذهل حين يراها كــل انسان . ولكننى — ايها السادة — لم أحبها لجمالها ، ولا لفطرتهــا الرقيقة . تلك السجايا التى تتصــل بطبيعــة المراة ، كثيرا ما يجدها الانسان فى هــذا العـــالم الادنى . اننى أحببتها من أجل صفة أخرى ، لروحها . احببتها — اسبغ الله على روحها السلام — لانها كانت مخلصة لزوجهــا ، بالرغــم من امتلائها بالمــرح ، وميلهــا الى الملاعبة . كانت وفية لى ولو انها لم تتخط سوى العشرين ربيعا ، فى حين اننى على وشــك بلوغ الستين ، كانت مخلصة لى ، انا الرجل الهرم .



وحينذاك ، كح حارس المقبرة الذى كان يأكل معنا . وكانت كحته معبرة ذات معنى. فالتفت اليه الارمل وقال :

ــ لا يبدو عليك ان تصدق كلامى .

قال الحارس مرتبكا :

ــ ليس هذا مالم اصدقه .. ولكن .. انت ترى .. فى هذه الايام .. الزوجات الشابات .. كثيرا ما يملن الى المواعدة .. وهن فى تلبيتها طيعات لا يخيبن رجاء

ــ انت لا تؤمن بقولى . سابرهن لك على صدقه . اننى استبقيت اخلاصها بمختلف الوسائل الاستراتيجية التى تستطيع ان تسميها لونا من التحصين . لم يكن فى قدرة زوجتى ــ بحال من الاحوال ــ ان تكون غير وفية لى ، وذلك لما سلكته معها من نهج ينطوى على الدهاء . لقد استخدمت دهائى فى حماية سرير الزوجة . انني اعرف بعض كلمات هى نوع من الشعار . كان على فقط ان اقول تلك الكلمات وكفى لاستطيع ان انام فى طمأنينة بمقدار ما تنأى الخيانة عنى .

ــ وماذا كانت الكلمات ؟

ــ فى منتهى البساطة .. اشعت فى المدينة اشاعة اثيمة انا على يقين بانكم تعرفونها . اخذت اقول للناس : ان زوجتى « اليونا » عشيقه « ايفان الكسيتش ساليخفاتسكى » رئيس البوليس

كانت هذه الكلمات كافية . لم يجسر ولا رجل واحد على مغازلة « اليونا » مخافة غضب رئيس البوليس . واذا حدث ان لمحها اى انسان ، وافترض فى تلك الحال ان « ساليخفاتسكى » جعل الظن يتسرب الى راسه ، فسرعان ما يفر التماسا للنجاة . ها .. ها .. ها .. انكم حاولتم ان تجدوا شيئا تصنعونه مع ذلك الصنم الملتحى . لم يكن فى استطاعتكم ان تهزأوا به ، خشية ان يكتب خمسة تقارير رسمية عن عدم قيامكم بالاجراءات الصحية وخشية انه اذا راى قطه لكم فى الشارع ،

كتب تقريرا جعـل فيـه القطة قطيعا من البهائم الضالة .

قلنا فى صوت بطىء ذاهل :

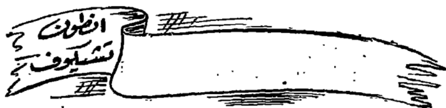
ـ على ذلك ، فان زوجتك لم تعاشر « ايفان الكسيتش » اذن ؟

ـ اوه .. كلا .. كان ذلك من صنع دهائى .. ها .. ها .. ها .. لقد اوقعتكم كما يجب فى الاحبـولة ايها الصـبيان .. ذلك ما يبلغه المكر

مرت ثلاث دقائق فى سكون . جلسنا وكنا صامتين ، وشعرنا بالاهانة والخجل ، لان ذلـك الرجل الهرم السمين ذا الانف القانى ، قد أجاز علينا خدعته بمهارة فائقة .

وتمتم الحارس قائلا له :

اضرع الى الله ان تتزوج مرة ثانية ..



طلائع الليل بادية . ونثار الثلوج يتجمع فى قطع كبيرة ، تلف متكاسلة حول مصابيح الطريق التى قد أضيئت اللحظة، وتغطى السقوف، وظهور الجياد، وأكتاف الناس ، وقبعاتهم ، تغطى كل هذا بطبقة من الثلج رقيقة ناعمة .

وسائق مزلقة الجليد «جونا بوتابوف» يلوح أبيض مثل الشبح، وقد جلس على صندوقه بلا حراك ، وانحنى بعضه على بعضه ، بكل مايطيق الجسم البشرى ان ينحنى، ولو ان ركاما متصلا من الثلج أخذ يتساقط عليه ، فان الواضح ان الرجل حينذاك لا يفكر فى ضرورة ازاحة الثلج عن نفسه ، وان جواده العجوز الضئيل ، ليبدو هو الاخر أبيض عديم الحركة . وانه بسكينته، وزواياهيكله، واعتدال قوائمه ، واستقامته مثل العصا ، ليشبه جوادا مصنوعا من كعك الزنجبيل .. !

ومن المرجح ان يكون الحصان غارقا فى التفكير ، فانه لحتم على أى مخلوق ينتزع من أرض المحاريث ، ومن مناظر البلاد الخلابة الشهباء ، ثم يطرح فى هذه الحمأة المتعفنة ، المليئة بالاضواء الهائلة ، وبالجلبة التى لاتنقطع ، وبالجماهير المسرعة ــ حتم على أى مخلوق فى هذه الحالة ان يستغرق فى التفكير .

لقد مضى وقت طويل على الرجل وحصانه ، وهما بلا حراك .

انهما غادرا فناء الاصطبل قبل موعد الغذاء ، ولم يقبض الرجل حتى الساعة أجراواحدامن راكب واحد .

ولكن ظلال المساء الآن ، تتساقط على المدينة ، وأضواء المصابيح الشاحبة فى الطريق ،تتحول الى ألوان زاهية ، ولغط الشارع يشتد ويتزايد ، حتى ليصبح ضوضاء ..

وسمع « جونا » صوتا يقول ـ أيها الحوذي .. أوصلنى الى ناحية فايبورج .

ويتحرك « جونا » بالمزلقة ،ثم يرى من خلال أهدابه المطلية ببياض الثلج ، ضابطا فى زيه العسكرى ، يرتدى غطاء الرأس والعنق .

ويكرر الضابط قوله ـ الى ناحية فايبورج . ثم يضيف ـ هل أنت نائم . ؟ الى ناحية فايبورج .

ويريد الحوذى ان يعبر عن اذعانه ، فيجذب عنان حصانه ، جذبة تتطاير على أثرها من ظهر الحصان وكتفيه ، قوالب من الجليد .

ويجلس الضابط داخل العربة وينقنق الحوذى لحصانه ،ويمط عنقه مثل الاوزة ، ويرتفع عن مقعده ، وتدفعه العادة ، أكثر مما تدفعه الضرورة فى تلك الحال ،فيلوح بسوطه فى الهواء .ويمد الجواد عنقه هو الاخر ، ويلوى أرجله ، ثم يندفع متلجلجا فى الطريق ...

وكان أول ماطرق سمع « جونا » من تلك الكتل السوداء التى تتدافع أمام ناظريه رائحة غادية ، هى هذه الصيحات :

ـ الى أين تندفع أيها الشيطان؟

ـ الى أين تتجه أيها الاحمق؟

ـ انحرف بالعربة الى اليمين .

ويصرخ الضابط محنقا غاضبا:

ـ الا تعرف كيف تقـــودالمزلقة . ؟

ـ اتجه الى اليمين .

وقد اعترضه حوذىكان يقودعربته ، وانهال عليه بالسباب ، وكان احد المـارة يعبر الطريق،ومسحت كتفه انف الحصـــان ، فحدج « جونا » بنظرات يقـدحمنها الغضب ، ونفض الثلج عن كم سترته .

ويتململ « جـونا » علىصندوقه كانه قد اجلس عـلى الشوكالشائك ، ويهزمرفقيه ، ويدير مقلتيهفيماحولهكالمسلوب المـأخوذ ، كانه لايعلم اين هو ،ولا لمـاذا كان هنا ؟

ويقول الضابط ماجنا :

ـ كم هم اوغادهؤلاء الناس ،انهم قد اعتزموا بكل بســـاطة ان يصطدموا بك،! او انيسقطواتحت حوافر جيادك . . يالهامن مؤامرة . !

وينظر« جونا » الى الراكب،ويحرك شفتيه ، ويبدو انه يريد ان يقول شـيئًا ، ولـكن حرفالايخرج من فمه ، وانما تحشرج فى حلقه غمغمة خشنة .

ويسأل الضابط ـ ماهذا ؟

ويقوس « جونا » فمـــه فىبسمة متكلفة ، ويمط عنقـه ، ويقول فى صوت مبحوح :

ـ ولدى . . ما . . . ولدىياسيدى مات فى هذا الاسبوع.

ـ هه . . وما سبب موته ؟

ويستدير « جونا » بكل بدنهنحو الراكب ، ويقول :

ـ منالذى يستطيعانيعرف؟ . لابـد ان الحمى هى التى سببت موته . انه رقد ثلاثةأيامفى المستشفى ، ثم قضى . . . انها مشيئة الله . .

وتتوافد من الظلامالصيحات:

ـ انظر أمامكأيها الشيطان.!

- هل انت كفيف البصر ، ايها الكلب العجوز ؟

- انظر الى أين تتجه بالمزلقة . !

ويصيح الضابط بقوله :

- اسرع أيها الحوذى .. لن نصل على هذا المنوال الى هناك حتى الغد .. اسرع ..

ويمط الحوذى عنقه مرة ثانية ، ويرتفع عن مقعده ، ويلوح بسوطه فى خفة يشوبها الاضطراب .

وينظر « جونا » خلفه مرارا الى الراكب ، ولكن الضابط يغلق عينيه ، ويبدو انه لا يرغب فى الانصات الى الحوذى .

ويهبط الضابط من العربة عند فايبورج ، فيقف « جونا » بجوار أحد المطاعم ، ثم يتكوم على الصندوق من جديد ...

وتطليه الثلوج الندية ، وتطلى حصانه مرة أخرى بالبياض .

وتنقضى ساعة ، ثم تنقضى ساعة أخرى ...

ويقترب ثلاثة من الشبان ، وهم يضربون طوار الشارع بأحذيتهم الطويلة الثقيلة ، ويتراشقون السباب ، اثنان طويلان نحيلان ، والثالث قصير أحدب .

ويصيح الاحدب فى صوت يشبه الزجاج المهشم :

أيها الحوذى . سر بنا الى قنطرة البوليس . سندفع لك نحن الثلاثة عشرين كوبيكا .

ويجذب « جونا » عنان حصانه ، وينقنق له ... ان عشرين كوبيكا ليست أجرا عادلا ، ولكن « جونا » لا يفكر فى ذلك .. ولم يكن يعنيه اذا كان الاجر روبيلا ، او خمسة كوبيكات ، بقدر ما كان يعنيه ان يجد راكبا . !

ويأخذ كل من الشبان الثلاثة ، فى دفع الاخر الى داخل العربة ، وهم يتبادلون الشتائم ، ثم يحاول الجميع ان يجلسوا فى وقت واحد .

وان المشكلة التى ينبغى ان تنجز الان بينهم ، تنحصر فيمن عساه يجلس ، ومن عساه يقف؟

ويتشابكون فى مشاجرة طويلة، يتبادلون فيها الالفاظ النابية والشتائم ، ثم يجتمع رأيهم على ان الاحدب هو الذى يجب ان يقف ، لانه أقصرهم .

ويستقر الاحدب فى مكانه بالعربة ، ويقول بصوته الذى يشبه الزجاج المهشم ، وهو يتنفس تحت عنق « جونا » :

ـ حسنا .. سر بنا . اسرع .. اية قبعة ترثديها ياصديقى . ؟ انك لاتجد اقبح منها فى بطرسبورج .. !

ويضحك « جونا » قائلا :

ـ ها .. ها .. انها شيء لايفتخر به . !

ـ حسنا .. شيء لايفتخر به .. اسرع اسرع .. هل ستمشى بهذه السرعة طول الطريق ؟ ... هل تريد ان أصفعك على قفاك؟

ويقول احد الشابين الطويلين :

ـ أحس صداعا فى رأسى .. لقد شربنا البارحة . فاسكا وأنا، اربع زجاجات من « البراندى » فى دكماسوفز .

ويقول الشاب الطويل الثانى فى غضب :

ـ أنا لا أستطيع ان أفهم لماذا تقول هذا الهراء .. أنت تكذب كالحيوان .

ـ ليقتلنى الله ، اذا لم يكن ماقلت هو الصدق .

ـ انه صدق مثل صدق الذى يقول ان القمل يسعل . !

ويتجهم وجه «جونا» قائلا ـ هه .. هه .. أيها الشبان المرحون . ويصرخ الاحدب ساخطا :

ـ تفو . .. فليأخذك الشيطان .. ألا تسرع أيها الطاعن العجوز أم لا ؟ هل هذه هى الطريقة التى تقود بها العربة . ؟ اضرب حصانك بالسوط . . أرفع السوط عاليا ، وألهب به ظهر الجواد . !



ويشعر « جونا » بالشخص الذى يهتز خلف ظهره ، وبصوت الاحدب المرتجف .

انه يسمع الشتائم تنهال عليه وتقع عينه على الناس ، فيأخذ شعوره بالوحدة يخف شيئا فشيئا ، ويصبح هذا الشعور تدريجا أقل وطأة على قلبه من ذى قبل .

ويكيل الاحدب الشتائم للحوذى حتى يغص حلقه بقسم بعيد التصديق ، وينفجر فى السعال .

ويجعل رفيقاه يتحدثان عن « ناديزدا بتروفنا » التى يعرفانها وينظر « جونا » نحوهم .

ويغتنم فرصة السكون القصيرة التى كان ينتظرها ، فينظر اليهم مرة ثانية ويقول :

ـ ان ولدى .. و .. لدى الضعيف .. مات ..

ويقول الاحدب وهو يتنهد ، ويمسح شفتيه بعدما سعل :

ـ كلنا سيموت .. اسرع . أيها الصديقان .. انا لا أطيق الوقوف زحفا ، مثلما أنا الان . امتى يصل بنا هذا الحوذى الى هناك . ؟

ـ حسنا امنحه بعض التشجيع ، أمنحه صفعة على قفاه .

ـ ألا تسمع ايها الطاعن العجوز ؟ سأجعلك تنشط . ان الانسان اذا اضطر ان يلتزم الادب مع أمثالك ، فان خيرا له ان يسير على قدميه .

ألا تسمع أيها التنين العجوز ؟ ام تراك لاتعلق ادنى أهمية على ماتقول . ؟

ويسمع « جونا » بأكثر مما يحس ، صفعة تنهال على قفاه .

ويضحك وهو يقول :

ـ ها .. ها .. أيها الشبان المرحون .. متعكم الله بالعافية .

ويسأل أحد الطويلين ـ هل أنت متزوج أيها الحوذى ؟

ــ هه .. ايها الشبان المرحون .. ان زوجتى الوحيدة الان ، هى الثرى المبلول . هـــه ... انهـــا المقبرة .. مـــات ولدى ، وعشت أنا . ؟ ياللغرابة . القد أخطأ الموت فى الدخول من الباب الصحيح .

لقد أتى الى ولدى ، بدلا من أن يأتى الى . !

ويستدير « جونا » نحوهم، ليخبرهم كيف مات ولده . ؟

وعنـــدئذ يتنفس الاحـــدب الصعداء ، ويعلن انه يحمد الله على وصولهم أخيرا .

ويحملق « جونا » بعدما يقبض العشرين كوبيكا ، يحملق طويـــلا وراء هؤلاء الشـــبان المرحين ، الذين يواريهم فى الطريق مدخل مظلم .

انه وحيد من جديد .. وان الســـكون الشـــامل يحيـــط به من جديد . !

وان التعاسة التى كانت قـــد خفت وطـــأتها فترة وجيزة ، تدهمه الان مرة ثانية ، وتمزق قلبه ، وهى أشد قسوة ، وأكثر وحشية . !

وتغيم مقلتاه المرهقتـــان ، وتشردان بنظرات جازعة متألمة فى جموع الناس ، التى تتحرك أمامه على جانبى الشارع ، آتية ذاهبة .

ألا يجد شخصا واحـــدا من بين هـــذه الالاف ، يمـــكنه أن يحدثه ؟

ولكن هذه الجموع تنطلق من أمامه غير عابئة به ، وغير مكترثة بأحزانه . ! ان آلامـــه كبـــيرة لاتقاس ، وان أحزانه لاوســـــع من كل الحدود .

بل أن قلب « جونا » لو انشق وتدفقت منه آلامه ، لفاضت على العالم بأسره .. ولكنها حبيسة صدره لايراها أحد . !

ان هــذه الالام قد وجــدت مخبــأها الأمين فى ذلك الوعــاء الصغير ، الذى لايستطيع أحدان يراه ، ولو على ضوء شــمعة فى وضح النهار . !

وتقع عين « جونا » على بواب يحمل حزمة ملفوفة ، فيعتزم ان يحدثه ، فيسأله :

ـ كم الساعة الآن أيها الصديق ؟

ـ تقترب من العاشرة .. لماذا وقفت هنا . ؟ تحرك بالعربة .

ويبتعــد « جونا » بعربتــه خطوات قليلة ، وينحنى بعضــه على بعضــه ، ويســلم نفســه للأحزان .

ويحس انه من الخير له ، الا يلجأ الى الناس ، والا يفزع اليهم .

وقبل ان تنقضى خمس دقائق على وقوفه فى مكانه ، يجــذب الرجل نفسه ، ويهز ناصيته ، كما لو كان يشعر بألم حاد ، ثم يشد عنان الجواد .

انه لايطيق احتمال شــقائه أكثر من هذا ..

ويفكر الرجل فى العودة الى الاسطبل .

وكأن الحصان الضئيل ، قد عرف ماتتجه اليه أفكار صاحبه فى تلك اللحظة ، فجعل ينطلق فى الطريق . !

وتمر ساعة ونصف ســاعة من الزمن ، يكون بعدها «جونا» جالسا أمام مدفأة كبيرة قذرة ، ومن حوله قوم يغطون غطيطــا متصــلا ، وهم نائمون ، عــلى المقاعد ، وعلى الارض ، وفــوق المدفأة ، والهواء خانق غير صالح للتنفس .

ويقلب « جــونا » بصره فى الوجوه النائمة ، ويحك رأسه ، ويأســف لانه عــاد الى البيت مبكرا ...

ويفــكر « جونا » فى أنه لم يكتسب من المــال حتى مايدفعه ثمنا للشعير !

ويقول الرجل لنفسه ـ هذا هو السبب فى شقائى . ان الرجل

المرتاح ، هــو الذى يعرف كيف يشتغل ، وكيف يكسب مايقتات به ، وما يطعم به حصانه .

ويفيق حوذى من النيــام فى أحــد الاركان ، ويبلــع ريقــه والنعاس يغلبه ، ويتجه الى وعاء المــاء .

ويســـأله « جونا » ــ هــل تريد ماء ؟

ــ أظن ذلك .

ــ هل ينعشك المــاء ؟ . ان ولدى قد مات أيها الزميل .. الا تسمع ؟ مات فى هذا الاسبوع بالمستشـــفى ... ياله من أمر غريب . !

وينتظر « جونا » ليرى تأثير كلماته ، ولكن .. لايرى شيئا .

لقد سحب الحوذى الصغير الغطاء على رأسه ، واستغرق فى سبات عميق .

ويتنهد الرجل العجوز ، ويحك رأسه . !

لقد كان « جونا » يظمــأ الى ان يتحدث ، مثلما كان الحوذى الصغير يظمأ الى ان يشرب ..

ان أسبوعا قد فات على موت ولده ، ولم يحــدث جونا بذلك احدا ، حتى هذه اللحظة ..

وانه ليرغب فى ان يتحدث بأناة عن ذلك ، حــديثا مستفيضــا مسهبا .

وانه ليرغب فى ان يسرد كيف مرض ولده ، وكيف تألم ، وماذا قال قبــل ان يمــوت ، وكيف مات ... ؟

وان له ابنة تدعى « آنيسيا » مازالت تقيم فى الريف على قيد الحياة .

وانه ليرغب فى ان يتحــدث عنها أيضا ...

نعم ان لديه الكثير مما يرغب فى ان يتحــدث عنه ، ويطيــل الحديث .

وان عــلى من ينصــت الى حديثه ان يتنهد ، وأن يصرخ ، وان ينتحب ..

وانه لمن المستحسن ، ان يلقى بحديثه الى مسامع النساء ، فانهن

ينفجرن فى البكاء بعد سماع الكلمة الاولى ، على الرغم من انهن مخلوقات حمقاء ..

ويفكر « جونا » فى مغادرة المكان الى الخارج ليلقى نظرة على جواده ، فان النوم لم يحن وقته بعد ، وهو لايخاف ان يفوت موعده ، لاعتقاده انه سينام طويلا .. طويلا ..

ويرتدى الرجل سترته ، ويدخل الى الاسطبل حيث يقف حصانه ويفكر الرجل فى الشعير ، وفى التبن ، وفى حالة الطقس .

انه لايستطيع ان يفكر فى ولده ، وهو وحيد ..

وانه ليحتمل ان يتحدث عن ولده مع أى مخلوق ، ولكن الكرب الذى لايطاق ، هو أن يفكر فيه وحيداً ، وان يتخيل صورته

ويسأل « جونا » حصانه وهو ينظر الى مقلتيه البراقتين :

- هل تمضغ الطعام . . أمضغ ماتشاء .. أمضغ ماتشاء .

وما دمنا لم نكسب مانستطيع أن نشترى به الشعير ، فان عليك أن تأكل التبن ..

نعم ، اننى كبرت ، وهرمت أيها الجواد ، ولم أعد أصلح لان أعمل حوذيا ..

كان يجب أن يقود ولدى المزلقة بدلا منى .. لقد كان ولدى سائقا ماهرا أيها الحصان . كان لايجب أن يموت ..

وسكت « جونا » لحظة ثم استأنف يحدث جواده ، قائلا :

اليك ماكان أيها الحصان .. راح « كوزما ايونشى » .. قال لى الوداع ، وذهب ليموت دون سبب .

والان افترض ان لك مهرا صغيرا أيها الحصان ، وكان هذا المهر هو ولدك الوحيد

وفجأة ذهب مهرك الصغير ، ومات ..

الا تحزن ؟ ألا تأسى .. ؟

ويمضغ الحصان ما بين أضراسه من التبن ، وهو ينصت ويحس فى يدى صاحبه .

.. ويسترسل « جونا » فى حديثه ويفيض ، ليخبر الحصان بكل ماجرى

تركته ..!

انطون تشيكوف

فرغا من تناول الطعام . وأحس كل منهما فى معدته شعورا من الغبطة الهينة

تثاءبا فى خمول ، واخذت عيونهما تضيق شيئا فشيئا من اثر الكسل العذب . واشعل الزوج سيجارا ، وتمدد مترهلا على الاريكة . وجلست الزوجة الى جانبه وهى تموء ..

كان كلاهما سعيدا !

وتثاءب الزوج قائلا :

ـ أرو لى شيئا .

ماذا استطيع أن اقول لك ؟. هيه .. اوه .. نعم !

هل سمعت ؟ صوفيا أوكركوفا تزوجت .. ما اسمه ؟ هذا الذى يدعى فون ترومب ! يا للفضيحة ! ..

ـ وما هى الفضيحة فى هذا ؟

ـ ان ترومب رجل عديم الشرف ، سفيه .. مثل هذا الخائن؟ انه لامبادىء له .. شخص فاسد الاخلاق ! كان يعمل فى خدمة احد الكونتات وربى ثروة هناك وهو الان يشغل منصبا فى السكك الحديدية ، ويسرق ..!

لقد سرق أخته ! وقصارى الحديث انه وغد ولص . وأنها

تزوجت مثل هذا الرجل ! هل تطيق الحياة معه ؟ يا للعجب ! مثل هذه الفتاة كذلك و .. هذا كل ما عندى . كان يستحيل ان اتزوج مخلوقا كهذا ! حتى اذا كان مليونيرا ! كنت اشمخ بانفى عن وجهه حتى لو اجتمعت له ملاحة انتقاطيع مثل .. مثل من؟ لست ادرى ! ليس فى وسعى حتى أن أتخيل ان أتخذ من رجل وغد زوجا لى !

وقفزت الزوجة واخذت تدور فى الغرفة وهى محنقة محمرة الوجه . وتلتمع الغضب فى مقلتيها . وكان صدقها واضحا جليا .

ـ هذا الـ « ترومب » مخلوق مرعب . وان المراة التى تتزوج سيدا كهذا ، غبية والف مرة غبية !

ـ هكذا كان لا يمكن ان تقترنى به طبعا : هيه نعم ..

حسنا .. واذا اكتشفت الآن اننى على شاكلة هذا السافل . فماذا عساك تصنعين اذن ؟

ـ انا ؟.. اننى اتركك !لا امكث معك ثانية واحدة . فى استطاعتى فقط أن احب رجلا شريفا . ولو اكتشفت انك فعلت جزءا من مائة مما فعله ترومب ، فاننى اتركك فى الحال .. ويكون حينئذ الوداع !

ـ كذلك .. اذن ، فزوجتى من هذا النوع ! لم اكن اعلم ذلك .. هـا .. هـا . ان المراة الصغيرة تكذب ولا تشعر حتى بالخجل

ـ انا لا اكذب ابدا . حاول ان ترتكب دناءة ،وعندها سترى !

ـ ولماذا احاول ؟ انت نفسك تعرفين .. انا اقبح من فون ترومب ! وهو نشال بسيط لو قرنته بى ! مالك تحملقين هكذا؟ هذا امر غريب !......



لحظة سكون .

ــ كم يبلغ مرتبى ؟

ــ ثلاثمائة فى السنة .

ــ وما ثمن العقد الذى اشتريته لك منذ اسبوع ؟.. الفان . . أليس كذلك ؟ وثوب الامس .. خمسمائة والقصر الريفى ، الفان ها .. ها .. ها .. ها .. وأمس ، اخذ أبوك يداورنى حتى استخلص منى الفا ..

ــ ولكن يا بيير ، هناك ايراد اضافى ..

ــ الجياد .. طبيب المنزل .. قوائم الحساب من بائع القبعات، واول امس خسرت انت مائة روبل فى لعب الورق ..

واعتدل الزوج فى جلسته مسندا راسه الى قبضة يده ، وراح يسرد اتهامات كثيرة . ثم قام الى المكتب وأطلع زوجته على جملة براهين مادية ، وقال :

ــ و'لان يا زوجتى الطيبة قدرايت ان فون ترومب لا يكون سوى شىء فارغ .. نشال بسيط متى قيس بى .. الوداع .. اذهبى .. ولا تذمى الناس فى المستقبل !

* * *

انتهت القصة . وسوف يسأل القارىء :

وهل تركت الزوج ؟

نعم .. انها تركته ، ولكن الى الغرفة الاخرى .!

اليوشكا

تولستوى

كان « اليوشكا » هو الاخ الاصغر . أطلقوا عليه اسم « الابريق » ، لان أمه كلفته ذات مرة ، بأن يحمل « أبريقا » مملوءا باللبن ، الى زوجة شماس الكنيسة ، وتعثرت قدم « اليوشكا » فى الطريق ، وسقط على الارض ، فانكسر منه الابريق ، وضربته أمه يومها ضربا شديدا وجعل الاطفال منذ ذلك الحين يكايدونه بحكاية الابريق ، وينادونه فى كل مناسبة بقولهم « اليوشكا ــ الابريق » حتى لتصقت به هذه التسمية التصاقا .

وكان « اليوشكا » ناحلا ، مريض الاذنين ، تنبسط كل أذن منهما الى الخارج ، مثل الجناح المنشور . وكان « اليوشكا » كبير الانف ، حتى لقد جعل لداته يتصايحون خلفه فى الطريق ، وهم يرددون : أنف « الوشكا » يشبه الكلب فوق الهضبة !

وكانت فى القرية مدرسة ، ولكن رأس « اليوشكا » لم يكن يقبل التعليم ، ووقته لم يكن يتسع لمراجعة الدروس .

وقد اضطر « اليوشكا » وهو فى سن مبكرة ، الى معاونة أبيه فى العمل ، لان أخاه الاكبر ، كان يشتغل فى المدينة ، لدى أحد التجار .

كان « اليوشكا » لم يتجاوز السادسة من عمره ، حين بدأ

يخرج مع شقيقته الصغرى ،ليقوم فى المرعى بحراسة البقر ، وبملاحظة الماشية القليلة

ولم يلبث « اليوشكا » بعدوقت قليل ، حتى كلف بمراقبة الجياد ، والاهتمام بها ليلاونهارا،وهى تسرح فى الحقول

وما ختم « اليوشكا » عامهالثانى عشر ، حتى كان يحرث الارض ، ويقود العربة ، ولم يكن« اليوشكا » قوى الساعد ،ولكنه كان مقتدرا ، مغتبطا فى كل الاوقات

كان يلوذ بالصمت ولايتكلم،حين يتخذ منه الغلمان مادة للفكاهة ، ثم يخرج عن صمته بان يشاركهم الضحك ، فيرتفع صوته معهم مقهقها

وكان اذا عنفه أبوه لامر من الامور ، ينصت ساكنا هادئا ، حتى اذا فرغ الوالد من تعنيفه لولده ، ابتسم « اليوشكا » ونهض الى مواصلة عمله من جديد .

وحدث ان فصل الاخ الاكبر من عمله ، عندما بلغ « اليوشكا » التاسعة عشرة من عمره ، فرأى الوالد ان يحل « اليوشكا »محل اخيه ، وان يشتغل بدلا منه عند التاجر فى المدينة

ومنحوا « اليوشكا » الحذاء العتيق الذى كان يستعمله اخوه، ومنحوه أيضا قبعة والده وسترته ، ثم أخذوه الى المدينة

وكان « اليوشكا » مسرورا بثيابه ، ولكن التاجر لم يعجب بها ولم يرقه مظهر الفتى ، فقال لوالده وهو يجيل فى «اليوشكا» ناظريه ـ كنت احسب انك ستحضر الى رجلا ، كى يشتغل بدلا من « سيمون » ، ولكنك أحضرت الى حيوانا ؟ فبماذا يفيدنى هذا الحيوان ؟

ـ بوسعه ان يعمل كل شىء ،ان يعقل الجياد ، وان يقود العربات .. لن تجد مثله مخلوقا نهما الى العمل ... ولايخدعنك انه يبدو شديد النحول . فهو صلب قوى .

ـ حسن .. ولكنى لم اتأكد من قولك بعد !

ـ ليس فيه من عيب غير انه لا يتكلم ، ولا يهزل ابدا ، وانما يلتهم العمل التهاما

ـ حسن .. ماذا عساى اصنع ؟ اتركه هنا . !

وبقى « اليوشكا » عند التاجر

لم تكن للتاجر أسرة كبيرة ، وانما كانت تتألف عائلته من زوجته ، وامه العجوز ، وولد متزوج نال قسطا من التعليم قليلا ثم اشتغل مع والده فى عمله ، وولد ثان يصغر الاول ، تعلم فى المدرسة ، والتحق بالجامعة ، ثم طرد منها ، فمكث فى البيت ، وابنة صغيرة مازالت تذهب الى المدرسة

لم تسترح العائلة الى «اليوشكا» اول الامر ، لانه كان فظا ، جلفا قبيح المظهر ، خشن الحديث ، ولكنهم سرعان ما ألفوا منظره ، واستراحوا الى شخصه

كان يؤدى العمل خيرا مما كان يؤديه اخوه ، وهو لا يتكلم ابدا . ماكلفه احد بشىء ، الا انجزه فى سرعة فائقة ، وعن طيب خاطر . وهو لا يفرغ من عمل هنا ، الا كى يتولى عملا آخر هناك ، دون أن يتوقف لحظة . ودون أن تكل سواعداه . ذلك كان حاله دائما ، حتى هنا فى البيت ، تتكوم المسئوليات وتتراكم على كتفيه ، وكلما انجز عملا ، وجد له احد أفراد الاسرة عملا آخر يكلفه بانجازه ، فان ربة البيت ، وام التاجر ، وابنته ، وابنه ، ومساعد التاجر فى المحل ، والطاهية ، كلهم كانوا يرسلونه الى هنا والى هناك ، وكلهم كانوا يطلبون منه الخدمات ، حتى لا يكاد يسمع الانسان فى البيت غير صيحاتهم : « اليوشكا . انجز هذه المهمة » و « اليوشكا اصنع هذا » و « ماذا ؟ هل نسيت يا اليوشكا؟ » و « تذكر جيدا يا اليوشكا .. لاتنس ما كلفتك به ! » و « اليوشكا » يسمع ويلبى ويجرى ، ويتم هذا العمل ، ويخف الى ذاك ، ولا ينسى شيئا بل يقبل على كل شىء ، راضى النفس ، والبسمة لا تفارق شفتيه .

وقد بلى سريعـــا فى قـــدمى« اليوشكا » الحذاء العتيق الذى اخذه من اخيه ، فلامه سيده ،لذهابه الى الخارج هكذا ، بارز الاصابع من ثقوب الحذاء ، وأمر بان يشترى له حذاء من السوق وكان الحذاء جديدا ، فسر به« اليوشكا » كل السرور . ولكن قدميه هما هما . فقد آلمتاه عندنهاية اليوم ألما شديدا ، من كثرة ماجرى هنا وهناك . فكان مـن ذلـك فى ضيق شديد ، وقـد خاف ان يحزن والده ، حين يأتى ليتسلم اجره ، فيجد ان السيد خصم ثمن الحذاء من الاجر !

كان « اليوشكا » يصحو فى الشتاء من النوم ، قبل أن يبزغ النهار ، وكان يقطع الاخشاب ، ويكنس الحظيرة ، ويطعم ويسقى الحصان والبقرة ، ثم يشـــعل الموقد ، ويطلى الاحذية ، وينظف ثياب سيده ، ويوقد النار تحت « السماور » وعاء الشاى ، وكان عليه ان يجعله دائما نظيفا براقا

وكان مساعد التاجر بعدذلك ينادى « اليوشـــكا » كى ينقـــل البضائع ، ثم تطلب اليه الطاهية ان يعجن الدقيق ، وينظف الاوعية والاباريق ، وكانوا يرسلونه بعدذلك الى مهام لاتنتهى : يبلـــغ رسالة ، يحضر الابنة من المدرسة ، يشترى زيتا للمرأة العجـــوز . وكانت تنهال عليه الصيحـــات :« أين كنت تتلكأ ؟ لعنك الله ! » او « لماذا تضنى نفسك ؟ سيذهب اليوشكا ... هيه ! اليوشكا ! »

و « اليوشكا » يذعن لهـــذا ، ويلبى ذلك ، ويذهب الى هنا ، ويجرى الى هناك

كان يتناول طعام الافطار وهو يجرى ، وكان دائما يجد صعوبة فى وجوده مـــع الآخرين ، حين يأزف موعد الغـــذاء ، فتعنفـــه الطاهية لانقطاعه عن مرافقتهم ، ولـــكنها كانت بالرغـــم من ذلك تحزن من اجله ، وتســـتبقى له شيئا ساخنا لغذائه وعشائه

وكانت الاعمال تتراكم عليـــه خاصـــة خلال العطلة الاسبوعية ، وفى الايام السابقة لها

وكان « اليوشكا » يحب ايام العطلة لانه يظفر فيها بالمنح المالية ، ولو ان مجموعها ربما لا يزيد على الستين « كوبيكا » ولكن حسبه ان يشعر بأنها ملك خاص له فيستطيع ان ينفقها كما يهوى

لم ينظر « اليوشكا » ابدا الى أجره ، لان والده سيأتى ، ويقبض الاجر من سيده ، ويلوم « اليوشكا » على شىء واحد ، يلومه على انه استهلك الحذاء بهذه السرعة الغريبة .

واشترى « اليوشكا » سترة محبوكة حمراء ، عملا بنصيحة الطاهية ، ودفع ثمن السترة « روبلين » ادخرهما من المنح التى كانت تعطى له . وارتدى السترة ، فكان بها سعيدا أى سعادة ، حتى لقد انفغر ثغره عن أسنانه النادرة ! !

ولم يكن لدى « اليوشكا » شىء يقوله ، وكان اذا تكلم ، التزم الاقتضاب والايجاز ، وكان اذا أمره احد بان يصنع شيئا ، أو سأله احد ان كان قادرا على انجاز عمل من الاعمال ، يجيب دائما غير متردد « استطيع ياسيدى ... بكل تأكيد ياسيدى » ، ثم يخف على الفور الى العمل الذى كلف به

ولم يحفظ الصلوات ، بل لقد نسى كل مالقنته له أمه

ولكنه كان يصلى فى الصباح وفى المساء ، كان يصلى بيديه ويرسم الصليب على صدره

وعاش « اليوشكا » هكذا عاما ونصف العام ، وحين أوشكت السنة الثانية على الانتهاء ، وقع فى حياة « اليوشكا » حادث غير عادى

لقد اكتشف اكتشافا عجيبا ــ انه الى جانب العلاقات التى يعقدها الناس مع غيرهم رجاء فائدة أو نفع خاص ، توجد علاقات مغايرة ، وأواصر اخرى ، تربط الناس بالآخرين ، لا لانهم يريدونه كى يطلى احذيتهم ، أو يحمل احمالهم ، أو يعقل جيادهم ، ولكن لانهم يريدونه ان يبقى معهم ، يريدونه لشخصه

كما هو ، لا لغاية منه ينتظرونهاولكن ليرعوه هم ، ويعطفوا عليه ، بل لقد اكتشف انه « هو » اصبح فى ذلك الوضع الذى يتمتع فيه بالرعاية والعطف .

وعلمته هذا جميعا«استينيا» الطاهية .

كانت شابة صغيرة يتيمة تحتمل الارهاق فى العمل مثلما كان يحتمله « اليوشكا » .

وقد بدأت تشعر بالحزن لاجله ، فأحس « اليوشكا » لاول مرة فى حياته انه « هو » بشخصه لا بخدماته ، كان ضرورة لانسان غيره

كان لا يسترعى اهتمامه - فيما مضى - ان تحزن من اجله امه ، لان هذا امر طبيعى ، فكانه هو - فى تلك الحال - الذى يحزن من اجل نفسه !

ولكنه لاحظ فجاة ، ان « استينيا » - وهى مخلوق غريب عنه - كانت تحزن من اجله ، وانها كانت تحفظ له فى احدى الاوانى ، بعض الحساء ، وبعض الزبد ، وانها كانت تجلس أمامه ، وتراقبه وهو يأكل وذقنهامستند الى ذراعها العارية وقد رفعت عنها كم ثوبها

وكان هو ينظر اليها ، فتضحك : ثم يضحك هو ايضا وقع هذا منذ عهد قريب ، وكان اول الامر فى نفس « اليوشكا » عجيبا غريبا ، حتى لقد اخافه واقلقه .

لقد شعر بان هذا سيمنعه من القيام بعمله على الوجه الاكمل مثلما كان يقوم به من قبل . ولكنه على أية حال ، كان مغتبطا فرحان ، وقد جعل يهز راسه وهو يبتسم ، حين نظر الى « البنطلون » الذى اصلحته « أستينيا » له

وتعود أن يذكر « أستينيا » كثيرا ، يذكرها وهو مستغرق فى عمله : وكان يذكرها وهو يقضى حاجة من الخارج ، فيهتف



في الحالين معجبا « اوه .. انهااستينيا » ، وكانت هى تبذل العون له . وكان هو ايضا يبذل العون لها .

ولقد حدثته كثيرا عن حياتها، حدثته كيف فقدت والديها ، وكيف كفلتها خالتها ؟

وحدثته كيف وجدت عملا في المدينة ، وكيف حاول ابن سيدها ان يقودها الى الضلال ؛ ثم كيف صدته هى عما كان يبغى ، وصرفته عما كان يتمنى ؟ كانت تحب ان تتحدث اليه طويلا ، وكان هو يحب ان ينصت اليها

ولقد سمعها تقول : انالقرويين الذين يشتغلون فى المدينة ، غالبا مايقترنون بالطاهيات . ثم سالته ذات يوم عما اذا كان سريع الرغبة في الزواج ؟

فقال أنه لايعرف ، ولكنه يهتم بأن يتزوج فتاة من القرية !

قالت ـ حسن . . هلوجدت فتاة تناسبك ؟

قال ـ ساتزوجك انت . . . هل توفقين ؟

قالت ، وهى تهوى بالمنشفة على ظهره ـ يا له من رجل . . انهم يسمونه « الابريق » ، ولكنهأخيرا تكلم . ! لماذا لا أوافق ؟

وجاء والد « اليوشكا » الى المدينة فى ايام المرافع ، كى يقبض اجر ولده .

وكانت زوجة التاجر قدوقفت على الصلة القائمة بين « اليوشكا » والطاهية ، وعرفتانالفتى يفكر فى الاقترانبالفتاة، وكانت لاتحب ان يتم ذلكالقران ، فقالت لزوجها

ـ ان الطاهية عندئذ ستكونحملا ثقيلا على اكتافنا . ! اية فائدة يمكن ان ترجى منها اذاهى رزقت بطفل ؟

واسلم التاجر أجر «اليوشكا» الى الرجل العجوز فسأله

ـ كيف حال الولد ؟ ألماخبرك انه لايخالف امرا ، ولا ينبس بكلمة ؟

قال التاجر ــ هذا صحيح . ولكنه ادخل الى رأســه خاطرا غبيــا .. انه يريد ان يقتــرن بالطاهية .. واننى الآن لا اريد ان أســتبقى فى بيتــى خادمــا متزوجا .. ان هذا لايرضينى

فصاح الوالد ــ من الذى يفكر فى هذه الحماقة ؟ وكيف ادخل الغبى هذا الخاطر الى رأسه؟ . حسن ياسيدى لاتكترث لذلك .. سأجعله يتخلى عن هذا الهراء . !

ومضى الوالد فى طريقه الــى المطبــخ . وجلس هنــــاك الى المنضدة ينتظر ولده

وكان « اليوشكا » يقضى من الخارج حاجة ، فعاد وهو يلهث

قال الرجل العجوز ــ كنــت احسبك ولدا عاقلا ، ولكن ماهذا الذى ادخلته الى رأسك ؟

قال الولد ــ انا ؟ لاشىء ! !

قال الوالد ــ كيف ؟ لاشىء ! انك تفــكر فى الزواج . واننى سأعقــد قرانك حين تســــنح لمناسبة ، وسأجد لك الزوجــة الصالحة بدلا من نساء المدينــة القذرات !

وكان عند الوالد لولده حديث طويل ، فمثل « اليوشكا » بــين يديه واقفا يتنهد ، حتى اذا أفرغ لوالد ما فى جعبتــه ، ابتســم « اليوشكا » ، وقال ــ سأتخلى عن هذا الموضوع

قال الوالد ــ هذا أفضل

وعندما أتيح له ان ينفرد بــ« أستينيا » بعد سفر والده ، اخبرها بما قاله الاب ، ولو انها لم تكن بحاجة الى ان تسمع منه ماسمعت ، لانهــــا كانت ترهف أذنيها من خلف الباب حين كان الحديث يدور بين الوالد والولد

وصاحت « استينيا » وهــى تجذب ثوبها بيديها ــ كل هــذا لايؤدى الى نتيجة .. ألا تسمع؟ لقد كان غاضبا .. لقد كان مهتاجا

وطقطق « اليوشكا » لسانه فى فمه ثم قال ــ لا استطيع ان أعصى له أمرا ... لقد وعدته ان أتخلى عن هذا الموضوع

وحين هبط المســاء نادت« اليوشكا » ربة المنزل ، لكى يغلق النوافذ ، وقالت له :

- هل فكرت فيما قاله لك ابوك ؟ هل ستتخلى عن هذا الهراء الذى طاف برأسك ؟

فقال « اليوشكا » وهو يضحك - انظرى الى الطريق

وعندئذ تفجرت من مقلتيه الدموع !

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد « اليوشكا » يتحدث الى « استينيا » عن الزواج ، وارتدت حياته الى ماكانت عليه من قبل

وذات يوم من أيام الصيام طلب مساعد التاجر من «اليوشكا» ان يمسح الثلج عن السقف ، فصعد اليه ، وأزال كل ماعلق به ، ثم راح يمسح بقايا الثلج المستخفية بين التجاويف

وفجأة زلت قدماه ، فسقط والفأس بين يديه

وشاء سوء الحظ ان يهوى ، لا على الثلوج المتراكمة ، ولكن على الغطاء الحديدى المنسدل فوق باب القبو . !

وهرولت اليه « استينيا » وابنة السيد ، وصاحتا - هل اصابك سوء يا « اليوشكا »

قال - اصابنى سوء ؟ بكل تأكيد ! . لا شىء !

وحاول ان يرفع جسمه فلم يستطع ، وراح يبتسم

وحملوه الى غرفة البواب

وجاء مساعد الطبيب وفحصه ثم ساله - من اى المواضع تتألم ؟ فقال « اليوشكا » - كل المواضع فى جسدى تؤلمنى . ولكن هذا لايعنينى . فقط ، اننى خائف من ان يغضب سيدى . . يجب أن تبلغوا والدى

ورقد « اليوشكا » فى الفراش يومين وفى اليوم الثالث ، ارسلوا الى القسيس يستدعونه

وسألت « استينيا » - هل ستموت حقا يا « اليوشكا » ؟

قال « اليوشكا » موجزا كماكانت عادته دائمـــا - وماذا

تحسبين ؟ هل نستطيع ان نحياالى الابد ؟ .. ان لـــكل شيء نهاية .. وان كل انسان سيفارق الحياة حين يأزف يومه . . . اشكرك يا « استينيا » فانك كنت رحيمـــة بى ... كان حسنا ان حرمونا الزواج . والا ، فبأى شيء كان سيعود علينا الزواج ؟ الآن كل شيء حسن

وعندما جاء القسيس ، صلى « اليوشكا » بيديه وكان يصلى بقلبه المؤمن بانه مادامت الحياة طيب للانسان فى العـــالم الارضى اذا كان مطيعا ، واذا لم تمتـــد بالســـوء يده الى احـــد ، فان الحياة فى العالم العلوى ستطيب به كذلك . وسيكون كـــل شيء فيها على هواه

وتكلم « اليوشكا » قليلا

وقد ظل يسألهم فقط ، جرعة من الماء ، وكان يلتمع فى مقلتيـــه تعبير حائر .

ونظر حوله متعجبا . ثم تمدد جسده ، ومات ...

في عيد الميلاد

انطون تشيكوف

وقفت فوق الصخور المشرفة على البحر ، امرأة شابة فى نحو الثالثة والعشرين . وقد ابيض وجهها بياضا شديدا يثير الخوف ، وراحت ترسل بصرها محملقة فى الفضاء . وكان الى جوار قدميها الصغيرتين المكتسيتين بحذاء من المخمل ، سلم ضيق واهى البناء ، يحيط به سياج يهتز فى يد الهابط على السلم الى شاطىء البحر .

كانت المرأة تحملق فى الفضاء ، حيث يختفى أمام ناظريها مدى يفغر فاه على البعد ، كئيبا ، عميقا ، لا يستطيع البصر ان يخترقه . ولم يكن فى وسع أحد أن يرى النجوم ، ولا البحر المتجمد وقد غطته الثلوج ، ولا الاضواء فى تلك الليلة ، وكانت سيول المطر تنهمر

وفكرت المرأة وهى تنظر الى الفضاء فيما عساه يكون على البعد هناك ، ثم لفت سترتها ، وهى تقطر بالماء حول صدرها ، وكانت مصنوعة من الفرو ، وكذلك أحاطت جسمها بشالها رغبة منها فى الحيطة ، كى تقى نفسها برد الرياح . لابد ان يكون فى هذه اللحظة زوجها السيد «ليتفينوف» وبحارته من صيادى السمك ، على مسافة من ذلك الظلام الذى لا يستطيع البصر أن ينفذ فيه .

لابد ان يكون زوجها مسرعا الى الشاطىء فى هذه اللحظة

اذا لم تكن تلك الرياح الجليدية التى تمزقت على وجه البحر فى اليومين الاخيرين ، قد دفنت تحت جبال الثلوج « ليتفينوف» وصياديه . وكان البحر آخذا فى الارتفاع ، وقال الناس انه سيشرع هذه الاونة فى تحطيم الجليد ، ولم يكن فى مستطاع الثلج ان يقاوم مثل هذه الرياح . آه لو كانت هناك فسحة من الوقت تستطيع فيها مركبات الجليد الخاصة بصيادى السمك ان تصل الى الشاطىء بر فارفها الثقيلة ، قبل أن تسمع المرأة الساذجة زئير البحر المستيقظ .

ألح على نفس المرأة شوق بالغ الى ان تنزل فى السلم حتى الشاطىء ، وارتجف تحت يدها وهى هابطة : السياج الخشبى ، مبللا ، لزجا ، ثم انزلق من قبضتها مثل ثعبان البحر ، فجلست على الدرجة الاولى واستمسكت فى حذر شديد بتلك الدرجات القذرة الباردة وأخذت تهبط الى الشاطىء على يديها وقدميها ، وهبت الرياح عنيفة على ملابسها فانتفخت سترتها وانفتحت . وشاعت على صدرها رائحة الرطوبة

وهمست المرأة الشابة وهى تزحف الى أسفل فتهبط درجة بعد أخرى «أيها المبارك نيكولاى!! ياصانع المعجزات .. أليس لهذا السلم نهاية ؟ ! » وكان ارتفاع المدرج ٦٣٠ قدما على وجه التحديد ، ولم يكن السلم متعرجا ذات اليمين أو ذات اليسار ولكنه كان يتجه الى أسفل فى خط واحد يصنع زاوية حادة مع الخط العمودى ، وهزت الرياح حانقة ذلك السلم من جميع جوانبه فأحدث صريرا كأنه لوح خشبى يوشك ان يتفتق .

ومضت عشر دقائق كانت المرأة بعدها قد وصلت الى قاع الدرج ، ووقفت قريبة من البحر الازرق .

وكانت حولها نفس الظلمة ولكن الريح اشتدت عنفا عما كانت عليه فى أعلى ، وانهمر المطر فى سيول لاح كأن ليس لها نهاية !

وسأل صوت رجل : من يسير هناك ؟

فأجابت المرأة : هـــذه أنا يادنيس ! وكان دنيس رجــلا فارع الطول قويا مسنا ذا لحية رمادية كبيرة . وكان منتصبا على الشــاطىء الرملى وفى يده عصا غليظة وكان هو الاخر يحملق فى الفضاء الذى يصعب اختراقه!

وراح يحـاول فى وقفته ان يجد من سترته جزءا جافا من البلل ليشعل عود ثقاب يوقد به غليونه ! وسأل الرجل مستغربا « أهـذه أنت السيدة ناتاليـا سيرجييفنا » ما الذى يمكن أن تفعليه هنا فى مثل هذا الطقس ؟ انه دمار محقق ان تكونى هنـا ببنيتك هذه ، وعقب خروجك من النفاس مباشرة ! ! اذهبى الى المنزل ياماتوشكا .. »

وارتفع عويل امرأة عجوز هى أم « ايفزى » صياد الاسماك الذى خرج يصطاد مع «ليتيفيتوف» وكانت العجوز تصرخ ـوتنهـد « دنيس » ثم لوح بيـده وقال وهو يرسل بصره الى الفضـاء « لقـد عشت فى هذه الدنيـا سبعين عاما يا ايتها المرأة الطاعنة فى السن وما زلت مثل طفـل صـغير ليس له ادراك . لمـاذا تولولين أيتهـا المرأة وارادة الله فوق كل شىء ؟ يتحتم عليك ان تكونى الان جالسة الى المـدفأة بدل الجلوس هنا فى نهب الرطوبة. اذهبى من هنا الى بركة الله .. »

قـالت المرأة وهى تنشـج :« ولـكنه وحيـدى ايفـزى » فأجاب الرجل : هذه مشيئة الله . دعينا نقل انه اذا لم يكن قـد كتب له أن يمـوت فى البحـر ، سيظل حيا ، حتى لو حطم البحر ثلوجه مائة مرة . ولكنه يا امى اذا قدر له ان يلقى حتفـه فى هذا اليوم ، فان القضاء حينئذ لله ، لاتعولى ، ايتهـا العجوز وليس «ايفزى» وحده فى البحر، ولـكن معه أيضا السيد «اندريه بتروفتش» و«فدكا»، «وكوزما» و « الشكاك رامسنك » .

وســألت ناتاليـا فى صـوت مرتعـد « ولـكن . .. هـل تراهم أحيـاء يادنيسوشكا » ؟

فقال الرجل : « من يستطيع أن يحدس ؟ اذا لم تكن الجبال الثلجية قد دفنتهم تحتها بالامس أو أمس الاول ، واذا لم يكن البحر قد فك الجليد ، فانهم مازالوا أحياء حتى الان ! !

أواه ! ماهذه الرياح ؟ ! انها تبدو كأن أحداً يأمرها بالهبوب هكذا .. الله يعاونهم .. الله يساعدهم . . ! ! »

وقالت المرأة الشابة بعد ان ارتدت خطوتها الى الوراء مذعورة وفى صوتها بحة غير طبيعية : « أن شخصا قادما عبر الثلوج !! »

وثبت دنيس عينيه وراح يصغى الى ما هناك ثم قال « كلا . . كلا . . ليس هناك أحد قادم ! ! انه فقط ذلك المجنون الصغير بتروشكا »

وصاح « من الجالس فى القارب يحرك المجاديف ؟ هل أنت بتروشكا ؟ هل أنت الجالس هناك ؟ »

واستطاع الوقوف أن يسمعوا صوت بتروشكا الخائر العانى وهو يقول : « انني جالس أيها الجد ! » قال الرجل : « هل تشعر بألم ؟ فأجاب بتروشكا : « اننى لا أستطيع احتمال مثل هذه الآلام ، أيها الجد »

كان القارب على الشاطيء الرملي قريبا من الثلج ، وفى قاعة يجلس بتروشكا وهو صبى فارع العود ، وكان طول يديه ورجليه شاذا غير متناسب مع تكوين جسمه ، وقد شد أسنانه فى عنف الى بعضها ، وانتابته رعدة سرت فى كل أطرافه ، وكان ينظر وهو على هذه الحال فى الفضاء المظلم كأنه يستجلى خلفه شيئا من الاشياء هناك ، ويداه الفارعتان تقبضان على المجاديف ، ورجله اليسرى مطوية تحت جسده .

قال دنيس وهو يتجه نحو القارب : « أن صغيرنا المجنون مريض . وان رجله تؤلمه ! ! مسكين أيها الروح الشقى . لقد اطاحت مجالدته للبحر بكل ادراكه . انه لمن المستحسن يابتروشكا ان تذهب الى حجرة دافئة ، لانك لن تصيب من هذا المكان غير البرد فقط »

وكان بتروشكا صامتا عابس الوجه من فرط الألم توجعه

ساقه اليسرى ، فى المكان الخلفى حيث يوجد العصب .

قال دنيس فى صوت أبوى رقيق « اذهب يا بتروشكا .. ونم فوق المدفأة .. ولتكن مشيئة الله ان تصبح ساقك اخف ايلاما »

وغمغم بتروشكا بقوله : «انني اسمع .. » ثم أرخى فكيه : فأضاف الرجل : «ماذا تسمع أيها المجنون الصغير ؟ » فقال : «الثلج يتكسر فى البحر» فأردف الرجل : « كيف تستطيع سماع ذلك ؟ » فأجاب الصبى : «انني أسمع ذلك النوع من الاصوات، ان الريح تحدث أصواتا والماء يحدث أخرى . والريح مختلفة عن الماء فيما تحدثه من أصوات ناعمة . أن الثلوج تتكسر على مبعدة من هنا »

وأرهف الرجل المسن اذنه مصغيا فى اهتمام شديد ، وطال انصاته ، ولكنه لم يستطع ان يميز شيئا غير ولولة الريح وضربات المطر وهى تتوالى فى ايقاع واحد. ومضت نصف الساعة فى الانتظار والسكون ، وأخذت الرياح تفعل افاعيلها فاشتدت تدريجا قوية عارمة وبدا انها اعتزمت تحطيم الجليد ، غير عابئة بما ينجم عن ذلك من حرمان الام العجوز من ابنها (ايفزى) والمرأة الشاحبة من زوجها ، ولا بما يقتضيه ذلك الحرمان المرير الأليم ، وقد أضاءت الدنيا حين تحول المطر الى رذاذ حتى أصبح فى الامكان أن يميز الانسان على هذا الضوء الاشباح الادمية السارية خلل الظلام ، وان يلمح الخيال الاسود للقارب وبياض الثلوج ، وقد امكن سماع صوت الاجراس خلال عواء الرياح . وكانت الاجراس تقرع فى قبة الكنيسة القديمة القائمة على الصخور فى قرية الصيد الصغيرة .

وكان على الذين قيدهم البحر وقد غطت وجهه العاصفة بالجليد، أن يتخذوا طريقهم صوب هذا الصوت ، صوت جرس الكنيسة ، وكأنه آخر عود من القش يتعلق به الغريق ! !

وزمجر بتروشكا وهو يطحن أسنانه بين فكيه «أواه .. شد ما أتألم . رباه ! ماهذه الالام ؟ »

قال دنيس « أعتصم بالصبر أيها المجنون الصغير ، وانك لو تحملت هذا الألم حتى النهاية ، لمنحك الله تاج الشهيد الذى تستحقه .. ان الله لايفرق بين الناس يا أخى . وان مملكة السماء تستقبل صغار المجانين .. فقط ، عليك ألا تضجر ! ! »

قال الصبى : « أنا لا أضجر ياجدى .. أواه .. لو كان بوسعى أن أموت سريعا .. اننى لن أقاسى مثل هذه الاوجاع ، عندما أصبح جثة هامدة .. ياربّاه ! ! » قال الرجل : « لاتصح أيها الأبله الصغير .. لاتصح .. تجلد قليلا .. »

قال الصبى « جدى .. ان المياه أصبحت قريبة .. هل تسمعها ؟ »

وأنصت الجد وسمع فى هذه المرة صوتا لم يكن شبيها بعويل الرياح ولا بصوت الاشجار .. وكان الأبله الصغير صادقا. ولم يعد فى الامكان ان يرجع ليتفينوف ولا صيادوه الى الشاطىء كى يحتفلوا بليلة عيد الميلاد .

قال دنيس : « انتهى كل شىء . . . أن البحر يتكسر »

وانحنت الى الارض النسوة الطاعنات . وسارت السيدة الشابة الى القارب مبتلة وهى تنتفض من شدة البرد . وراحت تنصت هى الاخرى الى ذلك الصوت المشئوم وقالت : « يحتمل أن يكون هذا صوت الريح يادنيس .. هل أنت على ثقة من ان الثلج قد انفك وتحطم ؟ »

فتنهد دنيس قائلا : « هذه مشيئة الله .. أرادها ان تكون لخطايانا .. » وأردف فى صوت رقيق « أرجوك أن تصعدى ياسيدتى .. لاتقتلى نفسك ! انك ترشحين بالبلل . »

وسمع الوقوف على الشاطىء ضحكة رقيقة ، ضحكة طفولة سعيدة هانئة .. لقد كانت تلك المرأة الشاحبة تضحك ! وتزلزل كيان دنيس . وكان دائما يحس بجسده يتزلزل كلما أراد ان يصرخ . وهمس فى اذن شيخ قروى وهو يقول : « لقد فقدت المرأة صوابها ! ! »

وأضاءت السماء فجأة ، اذ اطل منها وجـه القمر وأصبح فى الامكان ان يرى كل شيء .. البحـر ، والجبال الثلجية وهى نصـف ذائبة ، والسيدة الشابة ودنيس ، وبتروشكا الأبله الصـغير الذى تقطب وجهه لاوجاع لايطيقها . وكانت جماعة موزليك واقفة فى احدى النواحى يمسك كل واحد منهما حبلا فى يده لسبب مجهول من الاسباب . وسـمع الجميع أولى قرقعـات الجليد ، غير بعيـدة عن الشـاطيء ، مخيفة مرعبة ! ! وتلتها القرقعة الثانية فالثالثـة .. ثم دوت الثـلوج بصـدعات هـائلة مخيفة ! ! وارتمت جانبا تلك الكتلة الضخمة وأظلمت نواحيها . واسـتيقظ بعدئذ وحش الريح وبدأ يصول مثبتا وجوده ! وكان عواء الريح ، وأصوات الاشجار ، وزمجرات بتروشـكا ، وقرعات أجـراس الـكنيسة ، كان كل ذلك ساكنا هادئا قبل زئير البحر .

وصاح دنيس : « لابد أن نصعد من هنا .. فان البحر سيفيض حالا على الشاطيء ، ويغطي هشيم الثلوج . وسوف يتحسن الحال الى جانب ذلك ـ حال البحر يأيهـا الاولاد .. سيدتى ماتوشـكا ، تعالى .. ان هذه هى ارادة الله »

واتجه دنيس نحو « ناتاليـا سيرجييفنا » وأمسـك مفصل يدها فى رفق وقال : « تعـالى ياماتوشكا » قالها فى صوت يفيض بالحنـان والعطف . ودفعت السيدة بيدها دنيس بعيداً عنها ورفعت هامتها فى شجاعة وسارت نحو السلم .

ولم يكن بياض وجهها يماثل بياض الموت ولكن خديها كانتا مشربتين باللون الوردى الـذى تشيعه الصحة وكانت أعضاؤها جميعا قد سرى فيها دم الحياة والشباب . وقد بدت عينـاها خاليتين من الخوف . وكـانت يداها اللتان تلفان الشال حول صدرها لاترتجفان ولا ترتعـدان كما كانتا من قبل . وأحسبت الان أنها قادرة على ارتقاء السلم دون حاجة الى معاونة أى انسان . حين بلغت فى صعودها الدرجة الثالثة من السلم ، وقفت كأنها



تسمرت في مكانها . ووقف أمامها رجل مديد القامة مهيب الطلعة يرتدي سترة من الفرو ويغطي قدميه حذاء طويل . وقال الرجل « انني ناتاشا لاتخافي ! »

وترنحت ناتاليا وهي واقفة حين تبينت أن الرجل الواقف أمامها هو زوجها هو السيد ليتفينوف . فهذه هي قلنسوته المصنوعة من جلد الكبش ، وهذا هو شاربه الاسود ، وعيناه الفاحمتان!

ورفعها زوجها الى أعلى ثم قبلها فاشتمت من فمه رائحة الخمر وكان بالرجل سكر خفيف .

قال : « ابتهجي ياناتاشا : انني لم أتحطم في الجليد .. ولم تغرقني العاصفة الثلجية .. لقد نجحت ، أنا والصيادون ، في الوصول الى تاجانروج ، ومن هناك استطعنا الرجوع الى الشاطىء .. لقد رجعت اليك .. رجعت ! » وأردف وهي منتصبة امامه صفراء مرتعدة تنظر اليه بعينين خائفتين تشكان فيما تريان ، وكأنها لاتستطيع ان تصدق الذي أمامها ، وقال وهو يضمها الى صدره هامسا : « شد ما أنت مبتلة .. شد ما ترتعدين ! » ومرت على وجهه النشوان بالسعادة والخمر بسمة رقيقة كأنها بسمة طفولة ناعمة . لقد انتظر هذه اللحظة في البرد والليل .. ألم يكن ذلك هو الحب ؟

واخذ يرسل ضحكاته سعيدة هانئة ، وكان الجواب على ضحكه نواحا صادرا عن قلب مفتت مكلوم ، ولم يستطع لازئير البحر ولا الرياح ان تذهب بذلك النواح .. ولم تستطع تلك السيدة ، وقد احتفر اليأس في وجهها أخاديد وتجاعيد ، ان تكبت ذلك النواح ، فاندفق من فمها قويا شديدا ، وسمع الزوج في عويلها كل شيء . سمع فيه اصوات الزواج الاجباري وكراهيتها له التي لايمكنها التغلب عليها ، والكآبة المقبضة ، وأخيرا سمع صوت أملها الذي تحطم في ان تصبح أرملة ! ! وكانت حياتها الماضية بكل أحزانها وبكل دموعها ، وبكل ماكابدته من الالام ، قد انسكبت جميعا في ذلك العويل

الذى لم يستطع أن يغطيه حتى صوت الثلوج وهى تتحطم فوق البحر .

وفهم زوجها معنى اجهاشها فى البكاء ، وكان من البعيد الا يفهمه . وتمتم قائلا : « أنت حزينة لان الثلوج لم تقبرنى ، ولم تدمرنى ! » وارتعشت شفته السفلى وعبرت بوجهه بسمة مريرة ، وهبط الدرج . وأوقف زوجه على الشاطىء وقال لها : « دعى الامر يكن كما تريدين » وسار مبتعدا عنها نحو القارب وكان الى جواره « بتروشكا » الابله الصغير ، مطبق الفكين يرتعد وهو يقفز على رجل واحدة ليجر القارب فى الماء ، فسأله « ليتفينوف » « الى أين أنت ذاهب » ؟ فقال : « اننى أتألم .. أريد أن أغرق . الجثث لاتحس الألم .. » وقفز ليتفينوف الى القارب وزحف خلفه الابله الصغير ؛ وصاح السيد ليتفينوف : « وداعا يا ناتاشا . دعى الامر يكن كما تريدين .. ولتتقبلى ما كنت تنتظرين حين وقفت فى برودة هذا المكان .. اذهبى اذهبى » وغمس الابله الصغير مجاديفه فى الماء وهما يصطدمان بقطع كبيرة من الثلج ..

ذهب القارب كى يلاقى الامواج العالية وقال ليتفينوف : « جدف يابتروشكا جدف .. أبعد بنا .. ابعد »

واطل ليتفينوف الى الوراء وهو يمسك مؤخرة القارب المهتز . واختفت ناتاشا عن ناظريه وتوارى الشاطىء أيضا . وسمع صوتا مجهدا لامرأة تناديه « ارجع »

وبدا له انه فى هذه الكلمة « ارجع » يستطيع ان يسمع اليأس والحب المحموم اللذين انفجرا فى هذه اللحظة . وخفق قلب ليتفينوف .. أن زوجته تناديه .. وان أجراس الكنيسة على الشاطىء تدق لصلاة السحر فى ليلة عيد الميلاد ! وأعاد الصوت نداءه فى ضراعة « ارجع » وردد الصدا هذه الكلمة ، وكذلك رددتها الرياح ، وقد كانت حتى أجراس الكنيسة تقول «ارجع . ارجع»
قال ليتفينوف وقد شد كمى الابله الصغير « دعنا نجدف

راجعين » ولكن الابله الصغير لم يصغ اليه ، وشد أسنانه الى بعضها من فرط الألم ، وأخذ ينظر الى الفضاء نظرة الامل ، وأعمل ساعديه الطويلتين فى المجاديف .. لم يناده أحد كى يعود .. والألم الذى ابتدأ يغزو أعصابه منذ طفولته ، صار أكثر حدة ونارا .. وأمسكه ليتفينوف من ساعديه وجذبهما الى الخلف ولكنهما كانتا صلبتين كالحجر وكان من الصعب ابعادهما عن المجاديف وقد كان الوقت — الى جانب ذلك — متأخرا . وكانت تتجه نحو القارب كتلة كبيرة من الجليد كأنها قدرت لتخليص بتروشكا من أوجاعه الى الأبد .

واستمرت المرأة واقفة على الشاطىء حتى الصباح . وحينما حملوها الى المنزل نصف متجمدة وقد أنهكها عذاب الضمير ، ووضعوها فى فراشها ، ظلت تهمس شفتاها « ارجع ... ارجع ... »

وفى ليلة عيد الميلاد فقط ، أحبت هذه السيدة .. زوجها .. !

أفلام العالم الجديد (مصطفى حسن وشركاه) س.ت ٤٥٩٨٠ تقدم

الفيلم المرشح لجائزة السينما هذا الموسم

قسمة ونصيب



إخراج المخرج الكبير

محمود ذو الفقار

قصة انسانية عاطفية

مستلهمة من

بيتي وبيتك



قصة وسيناريو

عزيزة أمير

تصوير

مصطفى حسن

حوار

يوسف جوهر

عزيزة أمير

يحيى شاهين

محسن سرحان

نعيم كاريوكا

بالاشتراك مع

زوزو ماضي

علي الكسار

السايس سويدي

عبد العزيز أحمد

والطفلة شهرزاد

والطفل شكوكو الصغير



الترجمة الفرنسية على نفس الشريط

مالياً بنجاح

بسينما لوكس بمصر

وسينما رحيب بالسويس وسينما سلمى بالزقازيق

وسينما عدن بالمنصورة

توزيع القطر المصري والخارج منتخبات بهنا فيلم بمصر والاسكندرية

لص أمين

فيودور دستويفسكى

كنت ذات صباح على وشك الخروج من البيت الى العمل ، حين دخلت الى حجرتى « اجرافينا » ، المرأة التى تتولى شئون منزلى ، وتقوم بمهمتى الغسالة والطاهية معا .

وشد ماكانت دهشتى مباغتة ، عندما اخذت «اجرافينا» تحدثنى وتحاورنى ! فقد كانت مخلوقا ساذج التفكير ، صامتا لا يتكلم ، لم تنبس خلال ستة أعوام ، بغير سؤالها اليومى عن نوع الطعام الذى أريده ، أو لعلنى وحدى — على الاقل — الذى لم يسمعها تتحدث أبدا ، الا بمقدار ما يحتمله هذا السؤال .

استهلت « اجرافينا » الحديث معى بقولها ، وكأن الكلمات تنقذف من بين شفتيها — جئت كى أقول لك شيئا ياسيدى .. يجب أن تدع الغرفة الصغيرة .

قلت — أية غرفة صغيرة ؟

قالت — لماذا ؟ الغرفة المجاورة للمطبخ .. أنت تعرفها .

قلت — ولماذا ادعها ؟

قالت — لماذا ؟ ! هكذا يصنع الناس للمستأجرين . كن على ثقة من ذلك .

قلت — ولكن .. من ذا الذى سيقيم فيها ؟

قالت — من ذا الذى سيقيم فيها؟ أوه .. سيقيم فيها ساكن يا سيدى .. كن على ثقة من ذلك .

قلت — ولكن الانسان يا أيتها المرأة الطيبة ، لايستطيع أن يضع فيها سريرا ، لانه — فى تلك الحال — سيتعذر عليه أن يتحرك فى حيزها الضيق .. فمن الذى بوسعه أن يقيم فيها ؟..

قالت — من الذى يرغب فى سكناها ؟ ان كل ما يحتاج اليه : هو مكان يضطجع فيه .. ان بوسعه أن يقيم فى النافذة .

قلت — اية نافذة ؟

قالت — كأنك لا تعرفها جيدا !. كن على ثقة من انها نافذة الردهة .. سيجلس عندها يشتغل بالخياطة ، وهى حرفته، أو يصنع أى شىء .. وربما كان باستطاعته أن يجلس فى كرسى .. أن لديه كرسيا ،وأيضا منضدة .. ان لديه كل شىء ..

قلت — ومن « هو » اذن ؟

قالت — أوه .. انه رجل طيب ، رجل عركته التجارب.. سأقوم له بطهى الطعام ،واتقاضى منه روبلات ثلاثا ، لقاء الطهى والسكنى .

واخيرا ، نجحت — بعد جهود متواصلة — فى الوقوف على جلية الامر ، فعرفت من محاورة « اجرافينا » ان رجلا كهلا تحايل عليها ، وتمكن من اقناعها بقبوله نزيلا يسكن المطبخ لقاء أجر يدفعه !

وقد عودتنى « اجرافينا » أن تنفذ كل رأى يطرأ على عقلها ، والا فانها تنغص على عيشى ، ولاتذيقنى طعم الراحة .

واذا حدث مرة ، أن وقع شىء على غير هواها ، فانها سرعان ماتتلبد طلعتها ، وتغرق فى كآبة عميقة ، تظل مستولية عليها ، أسبوعين ، أو ثلاثة أسابيع .

ويصبح على خلال تلك الفترة ، أن احتمل فساد غذائى ، وان احتمل ضياع فرشى ، وان احتمل اتساخ أرض منزلى ، بل ان أصبر على اكثر من كل هذا .

وقد لاحظت منذ زمن طويل ، أن هذه المرأة المبهمة ، عاجزة عن ادراك أى قصد ، عاجزة عن توليد أية فكرة .

ولكن ، اذا استعان أحد ببعض الوسائل ، وادخل الى عقلها العاجز ، رأيا من الاراء ، أو فكرة من الفكر ، فان الوقوف دون تنفيذ ذلك الرأى ، أو دون تحقيق تلك الفكرة ، هو القضاء المبرم على حالتها المعنوية فترة طويلة من الزمان .

لذلك ، أذعنت فى الحال لرغبة « اجرافينا » ، حرصا منى على راحة البال وهدوء الخاطر ، وقلت — هل لديه جواز شخصى أو شيء يماثله ؟

قالت — نعم . . لديه ما تطلب . . كن على ثقة من ذلك ياسيدى . . انه رجل طيب ، رجل عركته التجارب . . لقد وعد أن يدفع روبلات ثلاثا

. . وما كاد يحل اليوم التالى حتى ظهر الساكن الجديد فى بيتى المتواضع ، بيت الرجل العزب ، فلم يزعجنى وجوده ، بل على العكس ، أخذ يفيض فى نفسى ، سرور خفى باطنى .

كانت حياتى مستوحشة على الدوام ، أشبه بحياة الرهبان المنعزلين ، عشتها منقطعا ، متوحدا ، نادر الاصدقاء ، حتى لقد بت أعانى صعوبة شديدة ، اذا غادرت البيت الى أى مكان .

وقد دارت من حولى عشرة أعوام ، وأنا لا أكاد اخرج من عزلتى ، فأصبح امرا طبيعيا ، ان يتزايد — على ممر الليالى — تعودى حياة الانفراد .

ولكن نفس حياة الانفراد هذه ، عشرة أعوام اخرى ، أو خمسة عشر عاما ، أو ربما أطول من ذلك ، مع نفس المرأة

« اجرافينا » ، وفى نفس البيت ، بيت الرجـــل العزب ، لتعتبر حقا ، مطمحا كئيبا حزينا .!

وعلى ذلك ، فان السـاكن الجـديد ـ اذا كان على خلق حسن ـ يعد هدية من السماء ، توجب الشكر لله .

تبين لى ، ان « اجرافينا » صدقت فيما قالت ، فقـد كان صـاحبنا حقيقة ، رجلا عركته التجـارب ، عرفت ذلك من جوازه الشخصى ، الذى دل على اشـتغاله بالجندية فترة من الزمان ، ولو أن ادراك هـذه الحقيقـة ـ لاول وهلة ـ كان أمرا ، هينا ، ميسورا .

كان « استاق ايفانوفيتش » ـ اذا قيس باقرانه ـ نموذجا فريدا ، عجيبا .

وقد تجاوب كل منا مع الاخر وارتاح الى معاشرته .

واصـبح اجمل ماقى الامر ، ان « استاق ايفانوفيتش » كان فى بعض الاحايين ، يقص عـلى حكاية من تلك الحكايات ، ويصف لى خلالهـا ، حادثة وقعت فى حيـاته .

كان ذخـيرة من الذخائر ، وكنزا من الكنوز ، ان يهبط فى ركود حياتى المملة الرتيبـة ، انسـان يتقن سرد الاقاصيص ، مثل « استاق ايفانوفيتش » .

وذات مرة ، قص على حكاية من هذه الحكايات ، فوقع لهـا تأثـير فى نفسى عظيم . وكان الذى دفعـه الى سرد الحكاية هو مايلى :

كنت وحدى فى البيت ، ذات يوم ، بعد ماغادره « استاق » ، وخرجت « اجرافينـا » ، كل منهما الى قضـاء شـأن من شـئونه .

وفجاة ، سمعت وقع أقدام فى الغرفة الاخرى ، فتصورت ان انسانا غريبا دخل اليهـا . وهرولت مسرعا الى هنـاك ،

فصدق حدسى ، حين شـهدت في الردهة رجلا غريبا ، قصير القامة ، لايتدثر بمعطف ، بالرغم من برودة الطقس فى الخريف .

قلت ـ ماذا تريد ؟

قال ـ هل يقيم هنا موظف يدعى الكسندروف ؟

قلت ـ لا يوجد هنـا أحد يحمل هذا الاسم ايها الاخ ... نعمت صباحا .

قال زائرى ، وهـو يتراجع الى الباب فى حذر ، وقد شاع فى محياه الخجل ـ ولكن البواب قال لى ذلك .

قلت ـ هيـا أيهـا الاخ ، تفضل ، تفضل الى الخارج

وحدث بعد ذلك ، ان دخل ـ مرة ثانية ـ الى ردهة البيت فى اليوم التالى ، رجـل غريب أيضا ، وكنا قد فرغنا من تناول طعام الغداء ، وكان « اسـتافى ايفانو فيتش » عاكفا على اصلاح سـترة لى ، ففتحت بابى الى منتصفه ، وشـهدت بعينى رأسى زائر البارحة ، يتقدم ساكن الجأش ، ويختطف من المشجب معطفى الشتوى الثقيل ، ويحشره تحت ذراعـه ، ثم يفر به الى خارج المنزل ، وكانت «اجرافينا» طول الوقت ، تحملق فى الرجل وهى لاتريم ، وقـد فغـرت الدهشة فمها ، فجمدت مكانهـا لا تصنع شيئا لانقاذ المعطف !

وانطلق « اسـتافى » وراء اللص ، ثم رجـع الى البيت ، بعد عشر دقائق ، خالى اليدين ، لايكاد يقوى على التقاط انفاسه

وكان قد تم للص أن يختفى تمام الاختفـاء ، بل أن يتلاشى عن الانظار .

قلت ـ يالسـوء الحـظ يا « استافى ايفانو فيتش » .. جميل أن معطفك باق لك ، والا فان اللص كان سـيضعنا امام مشكلة محيرة .. يااللمجرم !

كان لتلك الحادثة تأثير بالغ فى نفس « استافى ايفانو فيتش » حتى أصبحت أنسى السرقـة ، كلمـا نظرت الى وجهه ، ولم

يكن بوسعه ان يتغلب على هذاالتـــأثير . كان بين الدقيقـة والاخرى ، يلقى مايشـتغل بهجانبا ، ليتكلم عمـا جرى ، ويستأنف تصوير الحادثة ، وكيف وقعت ، ويعجب كيف تمت السرقة تحت ناظريه ، وعلى بعد خطوة واحدة منه ، ويعجب كيف لم يستطع هو أن يتمكن من اللص !

وهكذا ، ظل يجلس الى عمله مرة ، ثم ينصرف عنه أخرى ، حتى رأيتـه اخر الامر ، يهبط الى البواب ، ليسرد عليه ماجرى ، ويقوم بتوبيخه ، لوقوع حادثة كهذه فى البيت الذى يحرسه .

وصعد بعد ذلك الى المنزل ، وجعل يؤنب «اجرافينا» ويعنفها

ثم جلس الى عمله مرة ثانية ، وبقى مـدة طويلة ، وهو يغمغم محدثا نفسه بما وقع ، وكيف وقف هو هناك ، ووقفت أناهنا ، وكيف اختطف اللص معطفى من المشجب ، وكيف تمت السرقة تحت ناظريه ، وعلى بعد خطوة واحدة منه ، الى اخر مايضيق به الحديث .

كان « استافى ايفانوفيتش » مثال الرجل الفضولى الكسول ، بالرغم من اتقـانه لحرفته كل الاتقان .

قلت له فى المساء بعدما ناولته قدحا من الشاى ـ لقد استغفلنا اللص يا «استافى ايفانوفيتش »

وكنت أريد ان أقطع الوقت باستعادة حكاية السرقة ، التى اوشكت لكثرة تكرارها ، ولفرط مايوليها صاحبنا من الاهتمام ، ان تصـبح حكاية مسـلية كل التسلية .

قال ـ ياسيدى ، انهم سفلة لئـام ، واننى لاشـعر بالقلـق والغيظ ، بالرغم من ان المعطف ليس معطفى . لقد اغضبتنى هذه السرقة ، واحنقتنى ، فأنا لا أجد بين هوام الارض وحشراتها ، ماهو اكثر انحطاطا ، ولا اشد قذارة من السـارق المتخفى ! ان اللص الحقيقى ، يتصـف بالجسـارة والجرأة على الاقل ، ولكن الاخر ـ تحت قنـاع الجبن ـ ينهب صنع يديك ، ينهب عرق جبينك ،

ينهب وقتك . ! يا للسفالة .!ان الانسان لايطيق الحديث عن تلك السرقة ، فهى حقا تثير الغيظ .!كيف أراك لاتشعر بالخسارة التى لحقت بك ياسيدى . ؟

قلت ـ صدقت يا «استاقى ايفانوفيتش » . . كان أهون على نفسى ، لو ان المعطف احترق ، اما ان يختطفه اللص ، فهذا شىء مزعج ، شىء كريه . !

قال ـ شىء كريه . ! هذه مسألة تتطلب التفكير ، لان اللصوص على انواع يا سيدى . تأكد من ذلك ، فقد صادفت فى حياتى لصا أمينا .

قلت ـ لصا أمينا . . ؟وكيف يتسنى للص ان يكون امينا ، يا « أستاقى ايفانوفيتش » ؟

قال ـ الزمتنى جانب الحق ياسيدى ، فكيف يوصف اللص بالامانة ؟ ان هذا لايكون أبدا . . ولكننى فقط ، أردت القول انه كان رجلا أمينا ـ مافى ذلك ريب ـ وانه سرق بالرغم من أمانته العظيمة . وحزنت أنا لاجله اى حزن .

قلت ـ لماذا ؟ وكيف وقع هذا يا « استاقى ايفانوفيتش» ؟

قال ـ انقضى على ما حدث نحو العامين ياسيدى ، وكنت فى تلك الفترة ، متعطلا منذ عام . وقد جمعتنى الايام التى سبقت تعطلى ، بمخلوق بائس ضائع ، توطدت بينى وبينه أواصر الصداقة . عرفته فى حانة من الحانات . كان سكيرا ، شريدا ، متسولا . وقد كان يشغل احدى الوظائف ، لكن ادمانه الخمر ، أفقده وظيفته . ياله كان رجلا ضائعا . علم الله وحده ، ما الذى كان يرتديه ، فكثيرا ماشك الناظر اليه فى انه يتدثر بقميص تحت سترته ! ما استطاع مرة أن يضع يديه على شىء ، الا رفع ذلك الشىء الى فمه يود ان يشربه . ! ولم يكن فظا ، ولا غليظ القلب ، وانما كان رجلا دمث الطباع ، طيب السجايا ،

يخجل من سؤال الناس . ولكن، حسبك ان تراه بائسـا ملهوف الرغبـة الى كأس من الخمـر ، فتدفع ثمنها عنه .

هـكذا انعقـدت الصـداقة بيننا ، أوقل - اذا شئت الحق - انه هو الذى التصق بى، ولم أضق أنا به ، فقد كان نموذجا فى الناس غير مألوف . كان يلاحقنى مثلما يلاحق الـكلب الصغير صاحبه فى كل ناحية ، فما ذهبت الى مكان الا وجدته فيه . وقد توطدت كل هذه الصـداقة بيننا ، على أثر مقابلتنا الاولى . كان نحيلا مثل الخيط النحيل .

ارتبط بى أول الامر بقوله - دعنى انفق الليلة عندك .

وأتحت له انفـاق الليـلة عندى ...

ورأيت جوازه الشـخصى ، فعرفت انه رجـل لاغبار عليه .

وتكررت نفس القصة فى اليوم التالى .

وجاء فى اليوم الثالث ، وانفق النهار كله فى النافذة ، ثم بقى طول الليل . !

، ورحت بينى وبين نفسى، أفكر فى ملازمته لى ، اتولى الانفـاق على طعامـه ، وادفع عنـه ثمن شرابه ، وأوفر له المـأوى، وانا - الى جانب هذا - رجل رقيق الحال ، فكيف أقوم باطعام غيرى وقضاء حاجاته ؟

لقد الف هو قبل ان يلقانى ، أن يسلك ذات السبيل ، فربط نفسه الى أحد موظفى الحكومة، وكانا يشربان معا على الدوام ، وانقلب الموظف سكيرا مدمنا، ثم قضى عليه حزن مجهول .

كان صاحبى يدعى «أميليان اليتش» وكنا نسميه «أميليا» .

وقد أخذت اطيل التفكير فيما ينبغى ان أصنعه معه .

وشعرت بالخجل حين فكرت فى طرده ، وشعرت بالحزن لحاله، وشعرت بالرثاء له ، هذا الذى لم تقع عيناى على انسان مثله ، تخلت عنه رعاية السماء .

انه لاينبس بـكلمة ، وانـه لايسأل حاجة ، ولـكنه يجلس أمامك صامتا ، وينظر مثل الكلب فى مقلتيك .

أرأيت الى اى حـال تهبط الخمر بالانسان ؟ !

ساءلت نفسى كيف أسـتطيع أن أقول له ـ يجب ان تتركنى يا «أميليا» ، فلا شيء لك هنا ، وقد أخطأت الطريق . أنا لاأمتلك الان كسرة الخبز ، فكيف يتيسر لى ان أطعمك ؟ !

وجلست أتعجب ماذا عسـاه يصنع « أميليا » ، لو أننى قلت له هذا القول .

وخيل الى ، أننى أرى كيف يحملق فى وجهى لو انه سـمع هذه الكلمات ، وكيف يظل فترة طويلة ، دون ان يفهم من كلامى لفظة ، وكيف حين يستقر فى ذهنه معنى الكلام آخر الامر ، ينخلع من النافذة ، ويحمـل ربطتـه التى مازلت حتى هذه اللحظة ، أستطيع أن أراها ، مليئة بالثقوب ، ذات علامة حمراء ، منتفخة بما تحتويه ولا يعلمـه غـير الله . وجعلت أتصور بعد ذلك ، كيف سيصلح سترته العتيقة الرثة على بدنه ، بحيث تبدو مقبولة أمام الانظار ، وبحيث توفر له الدفء ، وبحيث تتوارى ثقوبها عن العيون ، فقد كان رجلا رقيق المشاعر ، مرهف الاحساس .

ثم جعلت أتصور كيف سيفتح البـاب ، وكيف سينفلت منه ، ومقلتاه تسبحان الدموع . وكان حراما ان أدفع بالرجل الى مثل هذا الهلاك . - ان الانسان ليحزن من أجله ، ويتولاه الاسى

وجعلت بعد ذلك ، أتخيـل حالى لو حـدث هذا ، وأتمثل كيف سأهب من مكانى ، وأصيح به ـ أنتظر قليلا يا «أميليا» . أنك لاتستطيع ان تظل ضيفى بعد الآن .. انا ذاهب الى غير عودة ، ولن ترانى بعد اللحظة ، لن تجدنى هنا . !

وحدث بعد ذلك ياسيدى ، ان انتقلت العائلة التى كنت اعمل معها ، فقد استدعانى سـيدى « الكسندروف فيلمونوفيتش » (توفى الى رحمة الله) وقال لى ـ انا مرتاح اليك كل الارتيـاح

يا « استافى ايفانوفيتش » . وسنعهد اليك بالعمل ثانية ، عندما نرجع من الريف .

وكنت اعمل خادما لديه ، وكان هو مثال الرجل اللطيف الرقيق ، ولكنه مات فى نفس السنة .

جمعت أمتعتى بعدما ودعت سيدى الكسندروف ، وحملت نقودى القليلة ، واعتزمت ان استريح بعض الوقت ، فذهبت الى امرأة عجوز كنت اعرفها ، واستأجرت ركنا من غرفتها ، وكان هو الركن الوحيد الخالى ، وكانت تلك المرأة تشتغل مربية فيما مضى ، ثم اصبحت تعيش بما يدفعه النزلاء .

قلت لنفسى فى تلك الاثناء - والآن .. وداعا يا « اميليا » ، فانك لن تجدنى حقا أيها العزيز . !

.. وماذا تحسب الذى جرى يا سيدى ؟

لقد خرجت الى لقاء رجل اعرفه ، وكان اول ما شاهدته حين رجعت فى المساء ، هو « اميليا » ، شاهدته جالسا على صندوقى ، والربطة الحمراء الى جواره ، وهو ملتحف بسترته العتيقة المهلهلة ينتظر قدومى ، وقد أراد ان يزجى وقته ، فاستعار من السيدة العجوز ، كتابا كنسيا ، ونشره تحت باصريه معكوس الوضع !

وأحس هو دخولى ، وشعرت كأن قلبى يغوص .

قلت لنفسى - لاشىء الآن يمكن ان اصنعه ، لماذا لا أسلك معه سبيل الجفاء من بداية الامر ؟

لذلك ، سألته على الفور - هل احضرت جوازك الشخصى يا اميليا . ؟

وجلست افكر : هل يصبح هذا الرجل الشريد مصدرا لازعاجى ؟

ولاح لى بعد التفكير ، انه لن يرهقنى كثيرا ، وانه يجب ان يأكل ، ولن يكفنى غير كسرة من الخبز فى الصباح ، اجعل مذاقها

سائغا فى فمه بان اشترى الى جوارها بصلة ، ثم كسره ثانية من الخبز وبصلة اخرى ، عندماينتصف النهار ، ثم بصله ثالثة وقليلا من الخبز فى المساء . واذاتيسر لنا بعد ذلك قليل من حساء الكرنب ، فان كلا منا سيتناول منه كفاءه . أضف الى هذا ، اننى لست اكولا ، وان الرجل السكير - كمانعلم جميعا - لايكاد يأكل شيئا ، وانما تنحصر كل مطالبه فى كأس من البراندى ، او قدح من الفودكا الخضراء .

ثم دخل الى تفكيرى - فى تلك اللحظة - انه سيحطمنى بما يشرب ، انه سيدمرنى تدميرا .

ولكن فكرة أخرى ياسيدى ،سارعت الى الاستقرار فى ذهنى، فامتلكت زمامى امتلاكا شديدا.

لقد شعرت بانه لايوجد شيء يربطنى الى الحياة،حين افترضت ان « اميليا » قد ذهب ! !

وحينئذ ، قررت أن اكون له أبا ، وان اعيش له حارسا ، واعتزمت ان اقف عاصما له من الهلاك ، فأحبس عنه الخمر ،كما تحبس الام عن طفلها اللبن ،عندما يحين وقت الفطام

وقلت لنفسى - انت ما زلت تنتظر يا « اميليا » . ؟ هذا حسن .. يجب ان تبقى معى.. فقط ، ينبغى عليك ان تهذب سلوكك .. ينبغى عليك أن تطيع الاوامر .

ثم قلت لنفسى مرة ثانية -سأحاول ان اجعل منه انسانا آخر ، بتعويده اول الامر ، ان يضطلع بأى عمل من الاعمال

ولكننى سأدعه طليقا ، مدة من الزمن قصيرة ، يستمتع فيها بكل مايحب .

وسأبحث بعد انقضاء هذه المدة عن عمل يناسبك يا « اميليا » ..

وهذا حق ياسيدى ، فانت تعلم ان كل نوع من الاعمال ، يتطلب من صاحبه قدرة خاصة .

وبدأت اراقبه دون ان يشعرهو بذلك ، فرأيت لاول وهلة ، انه مخلوق يائس قانط .

واســـتهللت تنفيــذ خطتي بالنصح له ، فجعلت استحسن امامه هذا الامر ، واستقبح ذاك .

وكنت اقــول له ــ يجب ان تفكر في اصلاح شأنك يا «اميليا» .. اصنع شيئا آخر الى جانب السكر .. الا ترى هذه الاسمال التي ترتديها ؟ الا ترى سترتك هــذه ، العتيقــة التي اعتــذر للتعبير ، اذا قلت انها لاتصــلح غير ان تكون غربالا . ! ؟ الايجب ان تفكر في كل هذا . ؟ !

وكان هو يجلس قبــالتي ، وينصت الى ما اقول ، ورأســه يتدلى على صدره كالمشنوق .

هــل تصــدق الذى سأقول يا سيدى ؟

لقد بلغ من ســوء حاله ، ان اطاحت الخمــر ، حتى بقــدرته عــلى ان يتكلم كلاما معقــولا ، مفهوما ، فانك اذا حدثته عن الخيــار ، اجابك متحــدثا عــن الفول !

وانه لينصت ، وينصت ، ثم يزفر زفرة طويلة ، فاســأله ــ لماذا تتنهد يا « اميليا » . ؟

ويجيب هو ــ اوه .. لاشيء.. لاتهتــم بي يا « اســـتافي ايفانوفيتش » .. هل علمت ان امرأتين كانتا تتشاجران اليــوم في الشــارع . ؟ لقــد انــكفأت احداهما في الطريق ، عــلى سلة ملأى بالتــوت ، كانت تحملهــا الاخرى .

ــ حسن .... وما في ذلك يا « اميليا » .. ؟

ــ فتعمدت المرأة الثانيــة ان تنكفيء هي الاخرى ، عــلى سلة التوت التي كانت تحملها الاولى ، فتبعثر التــوت عــلي الارض ، وتدوسه بقدميها . !

ــ حســن .. وما في ذلك ايضا يا « اميليا » .. ؟

ــ لا شيء يا « استافي ايفانوفتش » . . انني فقط ، أذكر لك ماجرى .

فأردد اذا بيني وبين نفسي ــ « انني فقط ، أذكر لك ماجرى » بالرجل التعس ، «أميليا الشيخ» الذى شرب حتى دهن مخه !

ويستمر هو ، فيقول ــ وهل علمت ان مبلغا من المال ، سقط من أحد المارة في شارع « جوروهوفي » على الافريز ، معذرة ، أقصد شارع « سادوفي » ، ورأى المال أحد القرويين ، فقال ــ هذا حظى ، وكان ــ في نفس اللحظة ــ قروى آخر قد وقعت عينه على النقود ، فقال للاول ــ بل ، انه حظى ، فقد رأيت المال قبل ان تراه .

ــ شيء جميل يا « اميليا » . . !

ــ واشتبك القرويان في معركة حامية يا « أستافي ايفانوفيتش » ولكن جندى البوليس أدركهما ، فأخذ النقود ، وارجعها الى السيد ، الى صاحبها الذى سقطت منه ، وهدد الرجلين بأن يسوقهما الى مقر البوليس .

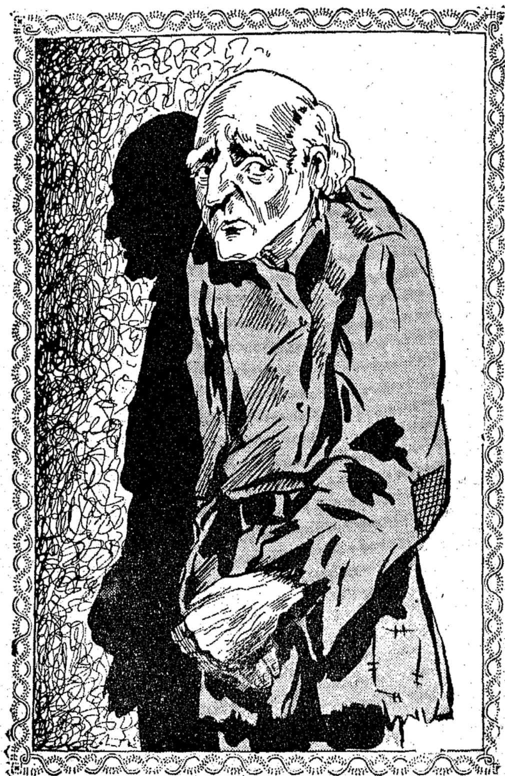
ــ حسن . . ولكن ما الذى تفيد من هذه القصة ؟ ! ماهى العبرة التى يمكن أن نستخلصها من هذه الحكاية ، يا « أميليا » . . !؟

ــ لماذا ؟ لاشيء . . لقد ضحك القوم أى ضحك ، وكان هذا هو كل مافى الامر ، يا « استافى ايفانوفيتش » .

ــ افترض أن القوم ضحكوا ، واستغرقوا في الضحك ، فكيف تشغل تفكيرك وتزحمه ، بهذه الامور التافهة ؟ هل تعرف ماذا سأقول لك يا « أميليا » . ؟

ــ ماذا يا « أستافى ايفانوفيتش » . ؟

ــ يتحتم عليك أن تبحث عن عمل تؤديه ، يتحتم عليك . ! هذه هى المرة المائة ، التى أقول لك فيها « فتش عن عمل تؤديه » . . ألا تشفق على نفسك يا « اميليا » . . ؟



ـ وماذا بوسعى أن أصنع يا « أستاقى ايفانوفيتش » . ؟
أنا لا أعرف أى نوع من العمل ، استطيع القيام به ، ولا أظن أحدا من الناس يقبل أن يلحقنى بعمل من الاعمال .

ـ ذلك ، لعين السبب الذى أضاع منك عملك السابق ، لادمانك الخمر ، يا أيها الرجل السكير . !

ـ وهل علمت أن ادارة البوليس ، قد استدعت اليوم اليها ، « فلاس » ، الساقى ، يا « أستاقى ايفانوفيتش » ؟

ـ ولماذا أرسلوا يستدعونه يا « أميليا » . ؟

ـ لا أعرف لماذا يا « أستاقى ايفانوفيتش » ، ولكننى أظن أنهم كانوا يريدونه ، فطلبوا اليه الحضور .

عندئذ ، جعلت أفكر ، وأقول لنفسى ـ لقد انتهينا يا « أميليا » . . انتهى كل منا يا « أميليا » . . وان الله يعاقبنا على خطايانا .

واننى أسألك الآن ، ياسيدى ـ أى شىء كان فى طوقى أن أصنعه مع هذا المخلوق . ؟

لقد كان رجلا ماكرا ، لم يساورنى الشك فى مكره كان ينصت لى ، وينصت ، ثم أشهد آخر الامر ، أن الملل قد عراه ، فلا يوشك أن يستبد بى الغضب ، حتى يخطف هو سترته العتيقة ، ويتسلل الى الخارج فى حذر ، دون أن يترك من خلفه أثرا ، ويقضى نهاره متجولا ، ثم يرجع فى الليل مخمورا . وعلم الله وحده ، من أين كان يأتى « اميليا » بالنقود ، فلم تكن لى يد فى ذلك . !

قلت له ـ مستحيل ان اصبر على كل هذا . . انك ماض الى نهاية محزنة يا « اميليا » . اقلع عن الخمر يا « اميليا » . . فكر فيما اقوله لك الآن . . اقلع عن الشراب يا «اميليا» . . سأدعك تنفق الليل على السلم ، اذا انت رجعت سكران مرة ثانية . لن اسمح لك بالدخول الى هنا ، وانت على هذه الحال .

وما سمع « اميليا » ذلك التهديد ، حتى قبع فى البيت

طول اليوم ، وبقى لايغادرالحجرة خلال اليوم التالى ايضا . ولكنه عاد فى اليوم الثالث ، فانسل الى الخارج من جديد

وانتظرت عودته الى المنزل ،وطال انتظارى ، ولكن « اميليا » لم يرجع . ! وهنا ، يجب ان اعترف ، ان الرعب قد استولى على قلبى ، وان الحزن قد ملأوجدانى . ورحت امعن التفكير فيما صنعت يداى . ! اننى اطلقت على الرجل اعصارا من الاعاصير، وتعلم السماء وحدها ، اين استقر ذلك الاعصار الآن . بالحطام الشقى المسكين . ؟ ولم يكن بمستغرب عندى ، ان يكون الهم قد اضاعه ، فليرحمه الله ،وليغفر له خطاياه .

وهبطت ثلة الظلام ، ولكن « اميليا » لم يرجع . !

وعندما تلألأ نور الصباح كنت فى طريقى الى الخارج ، فرأيت « اميليا » الشيخ فى مدخل المنزل ، رأيته راقدا على السلم ، ملقيا رأسه على احدى الدرجات ، وقد أحالت البرودة لونه الى زرقة قاتمة ، وسرت فى أوصاله القشعريرة ، حتى بلغت من عظامه النخاع

قلت ــ ماذا تصنع على الارض يا « أميليا » ؟ ما معنى هذا ، يا أيها الشيخ ؟ !

قال ــ لماذا يا « استافى ايفانو فيتش » ؟ انك .. آ . . انك غضبت منى فى ذلك اليوم .. كنت مهتاجا .. وقطعت على نفسك عهدا ، ان تجعل نومى على السلم .. لذلك ، اجفلت أنا من المغامرة بالدخول الى حجرتك يا « أستافى ايفانو فيتش » ... و... ورقدت هنا ، فى مدخل البيت .. لقد اهتز شعورى بالغضب ، وافعمنى الحزن والاسف

قلت ــ يجب ان تشغل نفسك بعمل اخر يا «اميليا » بدلا من ان ترقد هنا ، لتحرس درجات السلم .

قال ـ لماذا ؟ وما هو هذا العمل الاخر ، الذى يمكننى القيام به ؟

وعندئذ ، جاش فى صدرى الغيظ ، وقلت ـ يا للنفس الضائعة .. يجب ان تتعلم خياطة الملابس ، يجب أن تتعلمها ، الان .. أنظر الى سترتك المهلهلة .. ! انها لاتصلح حتى ان تكون خرقة بالية ، فكيف أراك تكنس بها هذه الارض ؟ يجب ان تأخذ ابرة ، وتشرع فى ترميم أسمالك وترقيعها ، كما تقتضى الحشمة ، وكماتفرض اللياقة . آه منك يا أيها الشيخ السكير !

.. وماذا تحسب الذى جرى ياسيدى ؟

لقد نهض « اميليا » ، وحقق رغبتى ، ولو اننى كنت لا أنتظر منه تحقيقها ، لقد ظل يبحث عن ابرة ، حتى عثر عليها ، وقعد الى العمل مرتاع النفس ، فخلع سترته ، وشرع يعالج ادخال الخيط فى ثقب الابرة . واخذت أنا أراقبه ، كما تتصور ياسيدى . كانت عيناه محمرتين حسيرتى البصر ، ويداه ترتعشان وبقى يدفع الخيط ثم يدفعه ، ويخطىء امراره فى ثقب الابرة ، ثم يفتح مقلتيه حتى يرتفع حاجباه ، ويبلل الخيط بريقه ويفتله جيدا بانامله ، ويحاول امراره فى الثقب دون جدوى ، فيعاود ما فعل مرة أخرى . وأخيرا ، غشيه السأم ، فانصرف عما كان يصنع ، وقال ـ لاأستطيع القيام بهذا العمل . ثم جلس بعيدا ، وجعل ينظر الى .. !

قلت ـ يجب ان استحسن هذا يا « اميليا » .. ولو كان معنا احد ، شهد الذى صنعت ، لسارع باطاحة رأسك عن بدنك .! ما الذى فعلت ياشيخ .؟ لقد كنت ادفعك مازحا الى امساك الابرة ، كنت اقول لك ذلك القول كى اشعرك بضآلتك ، كى اشعرك بصغر شأنك ! الق بهذه الابرة الملعونة جانبا ، الق بها ، استحلفك بالله ، واجلس هنالك مطمئنا ، ولاتجلل نفسك بالعار ،

ولاتجلل نفسى بالخزى بعد ذلك،حين تنفق ليسلتك على السسلم يا « اميليا » .!

قال – لماذا ؟ ارشـــدنى الى ماأصنع يا «استاقى ايفتو فيتش» اعلم جيدا ، اننى رجل سكير ،رجل لايصلح لشىء ، رجل لايقوم بغير ازعاجك ، انت ايها الكريم المفضال .

وما فــرغ من القاء كلامه ،حتى اخذت شفتاه الزرقاوان – فجأة – ترتعدان ، وانحــدرت على خده الباهت دمعــة كبيرة ثم ارتعشت على ذقنه الشائك. وعنــدئذ ، رأحت تفيــض من مقلتى الشيخ المسكين ، سيول متلاحقـــة من الدموع ... الا فليتداركنا الله برحمته .. لقد شعرت لحظتها ، كأن نصلا حادا، انغرس فى قلبى .. يا للمخلوق المــرهف الوجــدان . ! اننى ماتوقعت ابدا ، ان تبلغ بالرجل رقة المشاعر الى هــذا الحد .!

قلت لنفسى – كلا ياأميليا.. ينبغى ان اقطع رجائى فيك .. انك مطلق السراح منذ اللحظة ، فلك ان تمضى كماتشاء فى الطريق التى تهــوى . . ولتمهــد لك فراشا تضطجع فيه آمن البال.

وبعد ، فاننى اتســاءل الان ياسيدى ، لماذا انسج قصة طويلة عريضة مما حدث ، وهو امر غاية فى البساطة ، لايستأهل كل هذا الاسهاب ؟ ! اعنى انك على سبيل المثال ياسيدى ، كنت لاتدفــع مليما واحدا ، لو ان ماحــدث جميعا لم يقع ، ولكننى انا كنت – فى سبيل ذلك – على اتم اهبة لان ادفع الكثير ، اذا كان طوع يدى هذا الكثير . !

انت تعــرف السراويل التى نرتديها لركوب الجيــاد . كان عندى منها سروال جميل ازرق، ليت الشيطان ، كان قداختطفه! كان محبوك الصنع ، على احسن طراز يمكن ان تراه . وقد طلبه منى ، سيد من الريف ، كان احد زبائنى ، ولكنه حين رآه ،اعتذر بانه مطبوق على رجليه، وضيق. لذلك ، بقى السروال لدى. وقد

خطر ببالى انه سروال ذو قيمة، بوسعى ان اقبض خمسة روبلات ثمنا له ، والا ، فاننى استطيع ان اصنع منه « بنطلونا » ابيعه لسيد من اسياد بطرسبرج ، ثم تبقى من قماشه قطعة اجعلها صديرية لى ، فأنت تعلم ان امثالنا من القوم الفقراء ، ينتفعون بأصغر الاشياء ياسيدى . وكان « اميليا » فى ذلك الوقت، يجتاز حالة من الاكتئاب النفسى ، راقبته خلالها ، فرأيت انه لم يشرب الخمرة طيلة اليوم ، وبقى اليوم الثانى على ذلك المنوال ، وانقضى اليوم الثالث دون ان تمر من بين شفتيه قطرة واحدة . وقد ظل كالبومة متجهم الاسارير ، وكأنه وهو جالس هناك ، صورة حية للشقاء ، تصيب قلب الناظر اليها بالاوجاع .

قلت بينى وبين نفسى — حسن يارفيقى « اميليا » . . ان السبب فيما انت عليه الان ، لايكون غير احد امرين : فلعلك لاتجد نقودا تدفعها ثمن الشراب، او لعلك قررت الاقلاع عن الخمر، لتفتح فى كتاب حياتك صفحة جديدة ، وبذلك تكون قد استمعت الى صوت العقل .

وكان قد حل يوم عيد ، فخرجت الى صلاة المساء ، وحين رجعت الى البيت الفيت « اميليا » جالسا فى النافذة ، الفيته سكران ، يتخبط تارة ، ويتمايل اخرى .

وادركت على الفور ، السر فى وجومه السابق ، لقد كان ظمآن الى الشراب ، وهو صفر اليدين . ! واتجهت الى صندوق ملابسى احضر منه شيئا ، فراعنى ان السروال لم يكن فى الصندوق ! وفتشت عنه هنا ، وفتشت عنه هناك ، ولكننى لم اجد له اثرا . وقد شعرت وانا انقب عنه ، كأن طعنة اصابت قلبى . وهرولت أول الامر الى المرأة العجوز ، واتهمتها بسرقته ، فما داخلنى اوهن الشك فى امر « اميليا » ، ولو ان جلوسه سكران هكذا ، كان يدفع غيرى الى ان يأخذ الشيخ بالسرقة !

قالت المرأة ـ لا ياسيدى .. يرعاك الله يا سيدى .. بماذا ينفعنى ذلك السروال؟ هل يمكن أن ارتديه .؟ لقد ضاعت قطعة من ثيابى بسبب نزيل مثلك من النزلاء .. انا لا اعرف شيئا عن سروالك ياسيدى .

فسألتها ـ من كان هنا ؟ من دخل الى هنا ؟

قالت ـ لم يكن هنا أحد ياسيدى .. اننى لم اغادر البيت طول الوقت . . وقد خرج « أميليا » ، ثم عاد ثانية . . وهذا هو جالس هناك ، فسله ايضا .

قلت ـ « أميليا » . . هل أخذت السروال الذى كان هنا ؟ ! أنت تتذكر السروال الذى صنعته للسيد الريفى .

قال ـ أنا ..! لا يا « استافى ايفانوفيتش » .. لم تمسس يدى ذلك السروال أبدا .

فجعلت أبحث عنه من جديد ـ و« أميليا » جالس فى النافذة يترنح ـ فلم أترك موضعا دون أن أقلبه رأسا على عقب . وفجاة قعدت القرفصاء فى مواجهة « أميليا » واختلست النظر اليه . وتصاعدت من صدرى آهة حرى ، وأحسست ان قلبى يجيش بين ضلوعى ، وان دمى يغلى فى عروقى غليانا شديدا . ونظر « أميليا » الى وجهى بغتة . وقال ـ لا يا « استافى ايفانوفيتش » .. سروالك ذاك . ربما .. لعلك ظننت اننى .. ولكن .. لم تمسس يدى ذلك السروال أبدا . !

قلت ـ ولكن ، أين تحسبه اختفى يا « أميليا » . ؟

قال ـ يعلم الله وحده .. اننى لم تقع عيناى أبدا ، على ذلك السروال .

قلت ـ أظن انه مشى من تلقاء نفسه ، وانه جرى الى حيث لايعرف احد يا « أميليا » . !

قال ـ ربما حدث ذلك يا « استافى ايفانوفيتش » .

فنهضت دفعة واحدة، عندما سمعته يقول ذلك ،واتجهت الى النافذة ، وأضأت المصباح ،وجلست أشتغل بالخياطة . كنت أصلح (صديرية) لاحد موظفى الحكومة ، وكان يقيم فى الطابق السفلى من البيت . كان قلبى يتلظى ،وصدرى يؤلمنى .وخيل الى اننى سأرتاح قليلا ، اننى سأخفف بعض مابى ، اذا قمت الى كل ما أمتلك من الثياب ،وجمعتها ،وألقيت بها مرة واحدة الى موقد النار . وبدا على « اميليا » انه قد لحظ هياج نفسى .. وان الانسان حين يكون مذنبا ، يستشعر الخطر الى أقصى مداه، مثله فى ذلك ، مثل طائر السماء يستشعر هبوب العواصف قبيل هبوبها .

عاد « اميليا » الى الحديث، فقال وصوته البائس العجوز، يرتجف بالكلمات ارتجافا ـ هل علمت يا «استافى ايفانو فيتش » أن « أنتيب بروهوريتش» مساعد الطبيب ، اقترن صباح اليوم بامرأة الحوذى الذى مات فى الاسبوع الماضى . ؟

فحدجته بنظرة غضبى، أدرك هو ماكانت تنطوى عليه . وعندئذ، رأيته يقوم من جلسته، ويتجه الى الفراش ، ثم يأخذ فى البحث هناك عن شىء من الاشياء.. وانتظرت. وظل هو على تلك الحال ، منهمكا فترة طويلة يتمتم طول الوقت ــ لا .. ليس هنا.. فى أية بقعة من الارض ، استقر ذلك الشىء الضائع ؟

وانتظرت لاشهد ماذا سيحدث، ففوجئت بالرجل وقد راح تحت السرير يزحف على يديه وركبتيه، ولم أحتمل أكثر من ذلك، فقلت ــ عن اى شىء تبحث يا «اميليا» ، وأنت تزحف هكذا تحت الفراش ! ؟

قال ــ ابحث عن السروال يا «استافى ايفانو فيتش» لعله يكون قد سقط فى أية بقعة هنا

قلت فى صوت مغتاظ ــ لماذا تحاول معاونة رجل مسكين فقير مثلى ، بان تزحف من أجله ،باحثا ــ عن لاشىء ــ ياسيدى؟!

قال ــ أوه .. لابأس من ذلك يا «استافى ايفانو فيتش» .. اننى انظر فقط .. سيظهر السروال الضائع .. وربما كان متواريا فى اى مكان .. !

قلت ــ هــه . . انصت الى يا « اميليا اليتش » .. !

قــال ــ مــاذا « يا استافى ايفانو فيتش » ؟

قلت ــ ألم تسرق انت السروال كأى محتال آثيم ، مكافأة لى على اطعامك قوتى ، واسكانك بيتى!

وصدقنى ياسيدى ، فقــد تولانى الغضب ، عندما رأيتــه يخلعنى ، بان يزحف أمامى على يديه وركبتيه !

قــال ــ كــلا يا « استافى ايفانو فيتش »

وظل راقدا كما كان ،ملتصق الجبهة بالارض تحت السرير . وبقى هكذا ،فترة طويلة ،وأخيرا ،نصب قامته ، ونظرت اليه ،فكان وجهه فى لون القماش الابيض .. لقد نهض ، ثم جلس فى النافذة عــلى مقربة منى ، نحــو عشر دقائق .

وأخيرا ، قال ــ كلا يا «استافى ايفانو فيتش »

وهب الشيخ دفعة واحــدة ،واقترب منى ــ يا الهى ... اننى مــازلت حتى الان ، استطيع ان أرى صورته ــ لقــد بدا لحظتها مخيفا كالمعصية !

قــال ــ كلا يا « اسـتافى ايفانو فيتش » .. لم تمسس يدى ذلك السروال أبدا .

وكان جسـمه يرتعد جميعا ،وهو يشــير الى صدره بأصبع مرتعشة ، وصوته العجوز يهتز ،حتى لقــد شــعرت بالخوف ياسيدى ، فأســندت ظهرى الى الحائط .

قلت ــ حسن يا «اميليا » .. اغتفر لى بقدرما تستطيع ،اغتفر لى اننى فى حماة جنــونى ، قد اتهمتك ظلما بسرقة السروال .. لقد اصبح لا يعنينى أمره ، فان بوســعنا ان نحيا بغــير ذلك

السروال . نشكر الله على أن ايدينا مازالت لنا ، نشكر الله ، فلن نكون مرغمين على السرقة ، ولن نحتاج الى سؤال قوم فقراء ، وانما سنحصل — مادامت لنا هذه الايدى — على قوتنا اليومى

وسمع كلماتى « اميليا » ، فظل واقفا حيالى ، ثم جلس أخيرا ، وبقى هكذا جالسا دون حراك ، حتى انقضى المساء . وذهبت الى فراشى ، و« اميليا » لم ينتقل من موضعه .

وفتحت عند الصباح مقلتى ، فوجدته مستلقيا على الارض ، وهو ملتف بسترته العتيقة . لقد خانته الجراة حتى فى السعى الى فراشه

وأصبحت منذ ذلك اليوم ، لا أشعر باننى أحب الرجل ، بل اصارحك بأننى كرهته فى الايام القليلة الاولى ، لقد شعرت كأن ولدى هو الذى سرقنى ، وهو الذى الحق بنفسى كل ما لحقها من الاذى .

وكنت اصيح بينى وبين نفسى — « اميليا » .. « اميليا » .. هل يمكن هذا .؟

وكان « اميليا » ياسيدى ، مندفعا فى طريقه ، فلم يكف عن الخمر اسبوعين متتاليين . كان سكران ، مذهوب العقل طول الوقت ، سلبت الخمر من رأسه الصواب ! كان يخرج فى الصباح ، ويرجع فى ساعة متأخرة من الليل . ولم استطع خلال الاسبوعين ان أستخرج منه كلمة واحدة . وكان يلوح ان الحزن يأكل قلبه ، وانه كان يجاهد كى ينجو من شىء يعذبه

واخيرا : كف عن الشراب ، لان المال الذى كان معه . قد نفد . وعاود الجلوس فى النافذة من جديد . واننى لاذكر انه مكث هناك ، ثلاثة ايام ، وثلاث ليال ، دون ان تنبس شفتاه بكلمة . وكانت بعد ذلك المفاجاة حين سمعته يصرخ ، وهو جالس فى موضعه من النافذة ! لقد كان صوته يشبه عويل الساقية ، ولم يدر كيف كانت تفيض من مقلتيه الدموع !

وانه ليحزن الانسان ياسيدى، ان يرى حياله رجلا طاعنا فى السن ، يصرخ امامه ويبكى ، من الهول ، من شدة الكروب !

قلت ـ ماذا جرى يا «اميليا»؟

واخذ بدنه يرتجف . وكانت هذه هى المرة الاولى التى احدثه فيها ، منذ ذلك المساء

قال ـ لاشىء يا « أستافى ايفانوفيتش » . .

قلت ، وقد غمر نفسى الحزن من اجله ـ اللهمعك يا «أميليا» . . ان الذى ضاع ، قد ضاع . . لماذا تكتئب هكذا يا « اميليا » ؟

قال ـ اوه . . . لا شىء يا « استافى ايفانوفيتش » . . . لاشىء . . انى اريد ان ابحث عن عمل اقوم به

قلت ـ واى نوع من العمل يا « اميليا » ؟

قال ـ اى عمل . لعلنى مستطيع ان اشغل وظيفة مثل وظيفتى السابقة . واننى لا تأهب لحادثة « فيدوس ايفانوفيتش» فى هذا الامر . انا لا احب ان ابقى عبئا عليك ، يا « استافى ايفانوفيتش » . اننى اذا وفقت الى عمل ، فسأرد لك هذا الفضل جميعا .

قلت ـ كفى يا « اميليا » ، كفى . . اترك للماضى كل الذى مضى ، ولا تتحدث عنه ، واتركنا نعش مثلما كنا نعيش من قبل

قال ـ كلا يا « استافى ايفانوفيتش » . . انك . . ربما . . ظننت . . ولكننى . . لم تمسس يدى ذلك السروال ابدا

قلت ـ يرعاك الله يا « اميليا»

قال ـ كلا يا « استافى ايفانوفيتش » . . انا لا استطيع ان اعيش حملا على كتفيك . . ان هذا امر واضح كل الوضوح . . يجب ان تعذرنى يا « استافى ايفانوفيتش » .

قلت ـ حماك الله يا «اميليا» واحاطك من لدنه بالبركة . . من الذى يزعجك ، ويرغمك على مغادرة البيت ؟ انا ؟

قال - لا .. ولكنه ليس امرا لائقا ، ان امضى هكذا فى حياتى معك . واننى استحسن لذلك أن اذهب عنك .

ارايت ياسيدى ، لقداستشعر خطورة مافعل ، واصر على ان يترك البيت .

ونظرت اليه ، فوجدته يهب من مكانه ، ويجذب سترته المهلهلة ويطرحها على كتفيه .

قلت - ولكن .. الى اين انت متجه يا « أميليا » ؟ استمع الى صوت العقل .. الى اين ستنزح، وفى اى مكان ستقيم ؟

قال - كــلا . . الــوداع يا « استاقى ايفانو فيتش » . . لاتمسكنى الان .

واردف وهو ينفطر بكاء - من الافضل ان اذهب .. انك لم تعد الشخص الذى كنت اعرفه من قبل .

قلت - وماذا الذى طرأ على شخصى من التغير ؟ اننى مازلت صديقك القديم . ولــكنك انت يا « اميليا » الذى ستفقد ذاتك، انت طفل مسكين فى حاجة الى الرعاية .

قال - لا يا « اســــتاقى ايفانو فيتش » .. اننى اوصيك منــذ الان ، ان تغلق صــندوق ملابسك ، حين تعتزم الخروج من البيت .. اننى افضل ، ان تتركنى اذهب يا « اســــتاقى ايفانو فيتش » .. واغتفر لى كل ماسببته لك من التعب خــلال اقامتى معك ..

وغادر الشيخ البيت، وانتظرت عودته يوما كاملا . وتوقعت ان يرجع فى المساء ، ولكنه لم يفعل .

وفات اليوم الثانى ، دون ان يحضر .

وانقضى اليوم الثالث ، وانا لااجد له اثرا .

وبدأ يساورنى عليه الخوف ، فلم اســتطع ان اشرب ، ولم استطع ان اطعم ، ولم استطع ان انام . وكــانت صـــورته

متسلطة على قلبى ، فخرجت فى اليوم الرابع ابحث عنه . وطفت اختلس النظر الى الجالسين فى الحانات ، لعله يكون بينهم ، ولكننى لم اقف له على مكان . وخيل الى ان « اميليا » قد ضاع ضياعا ، فكنت اردد بينى وبين نفسى - ترى ، هل عملت على ان تظل حيا يا «اميليا» ؟ لعلك ملقى الان تحت سور من الاسوار ، ايها الرجل السكير ، كما يلقى شلو من السفينة مزقتها الامواج ؟ !

وعدت الى المنزل وانا اشعر بالموت فى بدنى ، اكثر مما اشعر بدبيب الحياة .

وطلع الصباح ، فغادرت البيت ، لافتش عن « اميليا » من جديد ، وانا اصب على نفسى اللعنات ، لاننى سمحت للرجل ان يذهب وحيدا .

وتصادف ان كان اليوم الخامس ، يوم عطلة وقد سمعت فى صباحه المبكر صرير بابى فنظرت الى الداخل .. واذا .. واذاهو « اميليا » ! كان وجهه ازرق ، وقد جعدت شعر راسه الاوساخ ، كأنه كان ينام فى الشوارع ، وكان جسمه نحيلا مثل عود الثقاب .

خلع الرجل سترته، وقعد على الصندوق ، وراح ينظر الى، وكنت مغتبطا برؤيته ، ولكنني شعرت - الى جانب هذا - بأن اغتمامى وحزنى من اجل الشيخ ، قد تزايدا كثيرا عن ذى قبل . تأكد ياسيدى، مثلما انت متأكد من وجودي الآن ، اننى أفضل الموت فى الخارج مثل الكلب ، اذا وقعت فى ذنب من هذه الذنوب ، على الرجوع الى البيت مرة ثانية ، ولكن «اميليا» ، رجع وهو مذنب الى البيت ، وكان شيئا محزنا غاية الحزن ، ان يرى الانسان انسانا مثله ، يقع فريسة كل ذلك الانحدار !

لذلك ، اخذت إعنى به، وارق فى محادثته ، واعمل على راحته

قلت له ـ حسن يا «اميليا» .. انني مسرور بعودتك . لو انك تغيبت اكثر من ذلك لكنت اليوم اطوف بالحانات منقبا عنك من جديد . ألست جوعان ؟

قال ـ لا يا « استافي ايفانو فيتش » .

قلت ـ تعال يا « اميليا » ألست جوعان حقا ؟ ان لدينا أيها الاخ بعض حساء الكرنب المتبقى من طعام البارحة .. كان فى الحساء لحم ، ليلة الامس .. انه جيد كل الجودة .. وهنا أيضا ، خبز ، وبصل .. تعال .. كل .. لن يؤذيك الطعام .

ودفعته الى تناول الطعام دفعا ، فلاحظت لاول وهله ، ان الرجل ، كالذى انقضت عليه ثلاثة ايام ، لم يتناول اثناءها كسرة من الخبز ، كان جوعه باديا مثل جوع الذئب .

لذلك ، ايقنت ان الجوع وحده ، هو الذى ارجعه الى البيت .
كان قلبى ينصهر انصهارا ، كلما نظرت الى وجه الشيخ المسكين .

وطرأ على بالى ، ان اتسلل الى الحانة ، فاحضر منها شيئا ادخل به السرور على هذا القلب الحزين . ولا ضير بعد ذلك ، من ان نضع لهذه الحال نهاية .

واحضرت له قليلا من الفودكا ، وقلت ـ ليس فى قلبى الآن حقد عليك يا « اميليا » .. دعنا نشرب نخب عطلة اليوم .. هل تحب الشراب يا « اميليا » .. ان الفودكا ، ستحسن حالك

وقاوم الرجل يده ، وجاهد فى ان يثنيها عن امساك الكوب ، فقد رأيت يده امتدت حتى أوشكت أن تلامس الكاس ، ولكنه سرعان ما جذبها عنها .!

واخيرا ، رأيته بعد دقيقة واحدة ، يمسك الكاس ، ويرفعها الى فمه ، فتنسكب الخمر من يده على كم سترته . ولكنه ماكاد يلصق الكاس الى شفتيه ، حتى وضعها مرة ثانية على المائدة

قلت ـ ماهذا يا « اميليا » ؟

قال ـ لاشيء يا « اسستافى ايفانو فيتش » .. انني . انني ..

قلت ـ ألا ترغب فى الشراب يا « اميليا » ؟

قال ـ حسن يا « استافى ايفانو فيتش » .. انني قررت الا اعود الى الخمر بأية حال يا « استافى ايفانو فيتش »

قلت ـ هل تعنى انك قاطعت الشراب مقاطعة لا رجعة فيها يا « اميليا » ؟ ام تعنى انك لن تشرب اليوم فقط ؟

ولم يجب الشيخ ورأيته بعد دقيقة واحدة ، يسند رأسه الى يده .

قلت ـ ماذا جرى يا «اميليا» ؟هل انت مريض ؟

قال ـ نعم ، يا « استافى ايفانو فيتش » .. اشعر بانني متضعضع القوى .

وعاونته فى ان يرقد على الفراش ، فرأيت انه مريض حقا . كان جبينه يلتهب ، وكان جسمه ينتفض تحت وطأة الحمى . وجلست قبالته طول النهار ، واخذت حاله تزداد سوءا ، حين اقبل الليل . واعددت له قليلا من البصل فى الزيت ، وقليلا من الخبز ، وقلت ـ تعال .. تناول بعض هذا الطعام ، فلعلك تتحسن .

وهز « اميليا » رأسه ، وقال ـ لا .. انا لا اشتهى اليوم الطعام يا « استافى ايفانو فيتش »

واعددت له قدحا من الشاى ، اسرعت به الينا المرأة العجوز ، فقد كانت حاله تزداد سوءا ، وكان خوفى عليه يشتد اللحظة بعد الاخرى

وذهبت فى اليوم الثالث الى طبيب ، كان يقطن على مقربة منى ، اسمه « كوستوبرافوف » وكنت قد عرفته ابان اشتغالى فى خدمة « آل بوسومياجين » ، فلبى الرجل دعوتى ، ورجع معى الى البيت ، وفحص المريض ، وقال ـ ان حالته سيئة ، ولا

اظن لحضورى الآن اية فائدة .ولكننى استطيع ان اعطيه قليلا من المسحوق ، اذا شئت .

ولم اعطه المسحوق ، لاننى كنت على يقين ، من ان الطبيب قد اشار به ، كى يبرر مجيئه ،ويشعرنى بأنه ادى عمله

وحل اليوم الخامس . وكان« اميليا » راقدا ، يموت امام ناظرى . وجلست فى النافذة ،وكان بين يدى ، ثوب اشتغل بخياطته . وكانت المراة العجوزتوقد النار فى المدفأة . وكنا جميعا صامتين . كان قلبى يتفتت له ، ويدمى ، وقدلاحظت ان الرجل كان يجاهد طيلةالنهار ، معتزما ان يفصح عن شىء ، لايجسر على الافصاح عنه

وأخيرا ، نظرت اليه ، فرأيت أى شقاء فى عينيه ! كان قد ثبت على شخصى ناظريه ، ولكنه حين رآنى انظر اليه ، خفض عنى بصره دفعة واحدة !

قال ــ يا « استافى ايفانوفيتش » ..

قلت ــ ماذا تريديا«اميليا».؟

قال ــ لو انك اخذت معطفى القديم ، الى واحد من باعة الملابس ، فكم تقدر مايدفعه ثمنا للمعطف ؟

قلت ــ لايمكن ان يقدرالانسان ذلك بالتحديد يا « اميليا » .. وبما دفع روبلا واحدا .

ولو كنت حملته حقا ، الى واحد من هؤلاء الباعة لاوسعونى هزءا وسخرية لاننى احضرت اليهم خرقة بالية !

وقد قلت له ان الباعة يدفعون روبلا ثمنا للمعطف ، كى اريحه

قليلا ، فقد كنت اعلم اى رجل بسيط كان « اميليا » .

قال — ولكننى كنت احسب ان الباعة يدفعون لك ثلاثة روبلات ثمنا للمعطف يا « استاقى ايفانوفيتش » . انه مصنوع من القماش يا « استاقى ايفانوفتش » ، فكيف يقدرون روبلا واحدا ثمنا له ؟

قلت — لا اعرف يا «اميليا» . . ولكنك اذا حملته الى السوق ، يجب ان تطلب — اول الامر — ثلاث روبلات ثمنا له .

وسكت « اميليا » قليلا ، ثم ناداني مرة ثانية — يا « استاقى ايفانوفيتش » .

قلت — ماذا تريد يا «اميليا»؟

قال — بع معطفى حين اموت ، ولا تدفننى به . انا استطيع ان ارقد رقدتى الاخيرة بدونه ، وهو بعد ، شىء ذو قيمة ، يمكنك ان تنتفع به .

ولا استطيع ان اصور لك يا سيدى مافعلت بقلبى كلمات « اميليا » ! ولا كيف مزقت نفسى تمزيقا !

كنت ارى « اميليا » يحتضر امام عينى

وأطبق علينا الصمت جميعا من جديد .

ونظرت اليه مرة ثانية ، وكان مازال يثبت على شخصى ناظريه ، ولكنه حين رآنى انظر اليه ، خفض عنى بصره دفعة واحدة ، فسألته — هل تريد قليلا من الماء يا « اميليا » ؟

— ناولنى جرعة ماء ، يا « استاقى ايفانوفيتش » . . باركك الله

واحضرت اليه الماء ، فقال بعدما شرب - شكرا لك يا « استافى ايفانو فيتش » .

- هل تريد شيئا آخر يا « اميليا » ؟

- لا يا « استفافى ايفانو فيتش » .. لا اريد شيئا بعد ذلك .. ولكننى .. فقط .. اننى .

- ماذا تريد يا « اميليا » ؟

- اننى .. فقط ..

- ماذا تريد يا « اميليا » ؟

- ذلك .. ذلك السروال .. اننى الذى سرق السروال ، يا « استافى ايفانو فيتش »

- فليغفر لك الله يا « اميليا » أيها المخلوق الحزين المسكين فارحل عن الارض فى سلام

وعندئذ ، كانت عيناى تغصان بالدموع ، فأدرت وجهى عنه قليلا ، ثم سمعته يقول

- يا «استافى ايفانو فيتش» ..

وادركت انه يريد ان يقول شيئا ، فقد كان يحاول ان يجلس ، ويحاول ان يتكلم ، فيتمتم ، ويغمغم ، ويدمدم .

واخيرا ، رأيت لونه فجأة قد توهج ، وارسل بصره الى . وبعدئذ ، رأيت لونه قد عاد شاحبا ابيض . ثم جعل يشحب ، ويبيض تدريجا ، ثم بدا على الرجل انه يهوى دفعة واحدة ، فسقط راسه إلى الخلف ، واجتذب من الهواء نفسا واحدا ، واسلم روحه الى الله .

ميزتان!

تضمنهما لكم معروضاتنا للموسم الشتوى الجديد



الخامات
التى تستحق الثقة
و
الأسعار
التى توجب الطمأنينة

فاقصدوا لشراء
لوازم الشتاء

من الأصواف الرجالى والحريمى
والحرائر والاجواخ والمفروشات
والأقطان والملابس الحريمى والرجالى

مؤسسة بنك مصر الكبرى

مركز بيع المصنوعات المصرية

عنوان الأناقة والجودة واعتدال السعر

المركز الرئيسى ٢ شارع فؤاد الأول بالقاهرة ت. ب ١٥٨
وفروعها بجميع عواصم ومدن القطر المصرى

الأم البيضاء

بقلم تيودور سولوجب

- ١ -

كان عيد الفصح يقترب ، « واسبركونستا تتينوفتش ساكسولوف » فى حال نفسية ، حزينة ، مرهقة ، بدأت تستولى عليه — فيما يلوح — منذ تلك اللحظة التى سئل فيها وهو عند « آل جورديشف » أين ستنفق العيد ؟

وتأخر جواب ساكسولوف على ذلك السؤال ، فقالت المضيفة ، وهى سيدة بدينة ، ثرثارة كليلة البصر :

— تعال عندنا .

وشعر ساكسولوف بالضيق والضجر .

فهل خامره ذلك الشعور بسبب تلك الفتاة التى ألقت عليه نظرة خاطفة ، حينما قالت أمها كلمتيها ، ثم سحبت عنه بصرها عندما واصلت حديثها مع الشاب ، مساعد الاستاذ ؟ .

كان ساكسولوف يروق فى اعين امهات الغيد اليافعات ، وقد اغاظته تلك الحقيقة ، لانه يرى نفسه رجلا اعزب ، متقدم السن ، فى حين انه لم يتخط السابعة والثلاثين عاما ، لذلك ، اجاب على دعوة الام فى لهجة مقتضبة :

ـ لك الشكر . . انني أقضي هذه الليلة دائما في منزلي .

وحينئذ نظرت اليه الفتاة باسمة وقالت :

ـ مع من ؟

فأجاب ساكسولوف :

ـ وحيدا !

قال هذه الكلمة وصوته تخالطه دهشة خفيفة

وأضافت الام ، وقد انفرج فمها عن بسمة لاذعة :

ـ يالك من كاره للناس !

عاش ساكسولوف محبا الحريته

وقد كانت تلوح له الفرصة بعد الفرصة ، فيتعجب كيف انه في احداها ، كان اوشك على الزواج ؟ ! وقد ألف ، الآن ، مسكنه الصغير ، المؤثث على طراز خشن ، وألف أيضا ان يرى « فلوت » خادمه الخاص ، الرزين ، المتقدم في العمر ، وزوجته كريستين وهي ليست دونه سنا ، وكانت هذه المرأة تطهى له الطعام ، وقد بات موقنا أشد اليقين ، انه لم يتزوج ، لرغبته في ان يظل وفيا لغرامه الاول ، والحقيقة ان البرودة اخذت تتسرب الى قلبه ، نتيجة لاهماله وعدم مبالاته ، وقد نجم ذلك عن انفراده ، وعن حياته التي يعيشها دون غاية

وكان له دخل مستقل ، وقد مات أبواه منذ أمد طويل ، ولم يبق له بعدهما أحد من ذوي القربى . عاش ساكسولوف عيشة هادئة مطمئنة ، ملتحقا بالعمل في احدى المصالح ، وكان يقبل على الفن والادب المعاصرين اقبال المطلع المحب ، ويغنم المتعة الابيقورية من الاشياء الجميلة في الحياة ، والحياة ذاتها تبدو لناظريه ، فارغة ، عديمة المعنى ! ولم تكن حياته على ذلك الوجه ،

الا حلما وحيدا ، نقيا وضيئا ،يعـاوده بعـض الاحايين ، ولولا رفيف ذلك الحلم ، لاصبح بارد القلب والحس ، شأن الكثير من الرجال الآخرين

- ٢ -

كان غرامه الاول ، والوحيد، لذاوى . . قبل أن يتفتح ، يجعله فى بعض الاوقات حـين يوغل المساء ، يحلم احـلاما صافيـة حزينة

وقد فاتت خمسة اعوام على لقائه بالفتاة الصغيرة التى أورثت نفسه ذلك التأثير الدائم الباقى

هى صبية رقيقة شاحبـة ،ضـامرة الخصر ، ذات عيـون زرق ، وشعر جميل اثيل .

تلوح لعينيـه كأنهـا مخلوق علوى صيغ من الهواء والضباب، وجمعه القدر مصادفة ، وألقـى به ــ برهة قصيرة ــ بين ضجيج الناس

حركاتها متئـدة ، ولصوتهـا الحنون ، ذوى النبرات الواضحة جرس ناعم ، يشبه غمغمة الجدول الذى يتماوج فى رقة هينة فوق الصخور

ولم يعرف ساكسولوف أجاء ذلك اتفاقا أو حسب نهج مرسوم ؟ ان يرى حبيبته على الدوام وهى فى ثوب ابيض ؟

واقترن تأثير اللـون الابيض على نفسه بتفكيره فيها ، ولازمه وحتى كان اسمها ، تامارا ، يبدونه أبيض دائما ، كالثلج الناصع فوق ذرى الجبال

وأخذ يتردد على والديها .وكم من فرصة ، اعتزم فيها ان يقول لها تلك الكلمات التى تربط مصير كائن بمصير الآخر .ولكنها

كانت تنصل منه على الدوام ، والرعب والالم ينعكسان على مقلتيها .

ما الذى كانت تخافه ؟ !

كان ساكسولوف يشاهد فى وجهها علائم الحب الصبيانى ، تضىء عيناها حين يظهر ، وتشيع فوق وجنتيها من الخجل حمرة وردية خفيفة .

ولكنها — ذات امسية لن ينساها مدى الحياة — ألقت سمعها اليه ، مصغية لما يقول

الوقت فى طلائع الربيع ، ولم تمض فترة طويلة على ذوبان النهر المتجمد ، وقد كست الاشجار أعوادها أثواب ناعمة خضراء

تامارا ساكسولوف يضمهما مسكن بالمدينة ، وهما جالسان قرب نافذة تواجه النهر « نيفا » ولم يجهد ساكسولوف نفسه فى التساؤل عما يقول ، ولا فى كيفية افضائه بما يريد ، ولكنه تحدث حديثا طليا ، كانت كلماته فى نفسها مخيفات مرعبات ! !

ودارت فى جلستها ، وشحب لونها ، وابتسمت غير واعية ثم نهضت وارتجفت يدها الرقيقة على ظهر الكرسى المنقوش ، وقالت فى صوت ناعم « الى الغد » ثم غادرت المنزل ، وبقى ساكسولوف فترة طويلة ، على أمل مضطرب ، وهو يحملق الى الباب الذى ابتلع تامارا

كان رأسه فى دوامة

وخطف بصره غصن من « الليلك » الابيض ، فأخذه وانطلق من الدار ، دون ان يودع اصحابها

لم يستطع ان ينام الليل ، فوقف جوار النافذة ، يحملق فى الشارع المظلم ، الذى راح يضىء شيئا فشيئا ، امام بشائر الصباح . وقد ظل ساكسولوف طول الليل يبتسم ، ويلهو بعود الليلك الابيض !

ورأى - حين ضاءت الدنيا - ان ارض الغرفة قد فرشت بنثار من اوراق الليلك . وقد استوقفه ذلك المنظر ، وبدا ساذجا مضحكا

ثم استحم ، فشعر كأنه استعاد هدوءه وسكينته ، وذهب الى تامارا ، فأخبروه انها مريضة ، أصابها البرد وهى خارج الدار !

ولم يرها ساكسولوف بعد ذلك أبدا ، فقد ماتت بعد اسبوعين ، ولم يسر فى جنازتها ، لان موتها تركه غير قادر على الحركة . ولم يكن فى وسعه القول بأنه قد أحبها ، أو أن ذلك كان فتنة عابرة وجيزة ؟ !

وكثيرا ماكان يحلم فى المساء انه يراها ، وعندئذ ، يبدأ رسمها فى التلاشى والانطفاء ، ولم تكن لدى ساكسولوف صورة لتامارا . وقد ذكره بها ، فى الربيع المنصرم فقط ، وبعد مضى سنين طويلة عود من الليلك الابيض فى نافذة احد المطاعم .. عود حزين موضوع فى غير مكانه ، بين الاطعمة والمأكولات . وقد احب ثانية منذ ذلك اليوم ان يفكر فى تامارا كلما هبط المساء ، وكان فى بعض الاوقات ، تأخذ مقلتيه غفوة ، فيحلم انها جاءت وجلست قبالته ، وثبتت فى عينيه مقلتيها اللتين تفيضان بالملاطفة . كأنها تريد شيئا ! ! وكان يمضه ويؤلم نفسه ، ان يحس نظرة تامارا ، الآملة الراجية

وقد فكر والجزع يساوره الآن ، عندما غادر منزل جورروديششف ، فى ان تاماراسوف تاتى ، لتهدى اليه تحيات العيد

وازعجته وحدته ومخاوفه حتى دعته الى التفكير والتساؤل :
لماذا لا اتزوج ؟ ! وحينئذ ، لاامسى وحيدا فى تلك الليالى الحافلة بالغموض والقداسة ؟ ! وطفرت الى ذهنه فاسيريا ميخائيلوفينا بنت آل جورروديششف . هى ليست جميلة ، ولكنها دائما حسنة الهندام ، وخيل الى ساكسولوف انها تحبه ، وانها لاترفضه اذا هو طلب يدها

ثم صرفته عن التفكير جلبة الشارع وضوضاؤه ، وأخذت افكاره عن فتاة جورروديششف، تتلون بالتهكم والسخرية . وهل يستطيع - فوق ذلك - ان يكون غير مخلص لتامارا من اجل اى انسان آخر ؟ ! وبدا له ان العالم بأسره ، بقعة مألوفة حقيرة ، امام اشواقه الى تامارا .. الى تامارا وحدها ، تأتى لتهديه تحيات العيد ! ثم تأمل قائلا :

- ولكنها سوف تثبت فى عينى نظرتها الآملة الراجية ! ! تامارا حبيبتى الرقيقة النقية .. ماذا عساها تريد ؟ ! هل لشفتيها الناعمتين ان تقبلا شفتى ؟

- ٣ -

راح ساكسولوف وهو يحمل عذاب تفكيره فى تامارا ، يتجول فى الشوارع ، ويرمق وجوه المارة بنظراته ، فتبعث الضيق فى نفسه تلك الوجوه الخشنة للسيدات والرجال . وأيقن انه لايوجد احد فى هؤلاء الناس ، يستحق ان يهتم به ، وان يبادله تحيات العيد ، منشرح الصدر ، مقبل النفس ، سوف تكون القبلات كثيرة فى اول ايام العيد، وكذلك الشفاه الفظة ، واللحى

المتلبدة ، وروائح الخمور . واذاكان على الانسان ان يقبل احـدا من الناس ، فليكن طفلا وقـدا صـبحت وجوه الاطفـال تسر ساكسولوف وتسعده

وطاف مدة طويلة . واحس الكلال والنصب . فدخل الـى ساحة احدى الكنائس . هاربامن صـخب الشـارع . وكان يجلس فى احـد المقاعد صـبى شاحب ، نظر الى ساكسولوف جزعا ، ثم بقى جالسا دون حركة وهو يحملـق امامه مبـاشرة . وكانت عيناه الزرقاوان حزينتين تفيضان بالملاطفـة تماما ، مثـل عينـى تامارا ، وكـان الصـبى ضئيلا حتى بدا ان طول قدميه غير كاف لتدليلهما ، فبرزتا امام المقعـد ، وجلس ساكسـولوف قرب الصبى وألقى عليه نظـرة فضول متجاوب

ان فى ذلك الصبى الوحيـد الصغير ، شيئا يبعث الذكريات العذبة . واذا نظر اليه الانسان فلن يجده سـوى غلام عادى ، فى ملابس مهلهلة مزيفة ، وعـلى رأسه الجميل قبعـة من الفـرو الابيض ، وقدماه يغطيهما حذاء بال عتيق

جلس الصبى طويلا فى كرسيه ثم نهض ، وراح يصرخ فى حنان وشفقة . وجرى منطلقا خارج المدخل — على طول الطريق — ثم توقف مرة ثانية ، وكان مـن الجلى ، انه لايعرف أى الطرق يسير فيها ؟ وصرخ صرخة ناعمة يولول فيها على حاله . وتحدرت على خديه دموع كبيرة . والتف حوله زحام من الناس . وأتى الشرطى ، وسأل الصبى :

أين يعيش ؟

فتلعثم فى حـيرة الاطفـال الصغار ، وتأتأ ، قائلا :

منزل جليوخوف :

وسأله الشرطى :

فى أى شارع ؟

ولكن الصبى لم يعرف الشارع وكرر فقط قوله الاول :

منــزل جنيوخوف !

وفكر الشرطى مليا ، وكان شابا طربا لاهيا ، ثم قرر أن مثل ذلك المنــزل ، لايوجــد فى الجــوار القريب !

وسأله عامل ذو وجه كئيب :

مع من تعيش ؟ هــل لك اب أيها الصبى .

وأجاب الصبى وهو ينظر الى حشد الناس بعينين طــافحتين بالدموع :

ليس لى أب ! !

قال العامل فى خشوع وهــو يهز رأسه :

ليس لك أب ؟ ! .. ياصغيرى لعزيز ! . وهل لك أم ؟

وأجب الصبى :

- نعم لى أم

- وما اسمها ؟

فقال الصبى :

الام ..

وتمهل قليلا قبل أن يضيف - الام السوداء !

وسأل العامل الكئيب :

السوداء ؟ هــل هــذا هــواسمها ؟

وأوضح الصبى قائلا :

كان لى فى الاول أم بيضــاء ، ولى الآن أم سوداء

قال الشرطى جازما :

حسن يابنى ، لن تــكون لعبة فى يديك . من الافضل ان أسوقك الى قسم البــوليس ، وهنــاك يمكنهم ان يعرفوا بالتليفون اين تسكن ؟ !

وسار الشرطى حتى بلغ بابا ،قرع امامه الجرس

وفى تلك اللحظة ، شاهده حارس الباب ، فخرج اليه ، وفى يده مكنسة . وامره ان يأخذ الصبى الى قسم البوليس ، ولكن الصبى حدثته نفسه فصاح قائلا :

دعنى اذهب ، وسأعرف الطريق بنفسى

هل كان خائفا من مكنسة حارس الباب ؟ أم تراه حقيقة تذكر شيئا ؟

لقد جرى الصبى - على أية حال - فى سرعة كبيرة ، حتى كاد أن يغيب عن بصر ساكسولوف غير أنه عاد ، وأبطأ فى خطاه ، وارتفع فى الشارع ، جاريا من ناحية الى اخرى ، محاولا دون جدوى ، أن يجد المنزل الذى يعيش فيه . وتبعه ساكسولوف وهو صامت ، ولم يكن يعرف كيف يحدث الاطفال ؟ !

وأخيرا شعر الصبى بالتعب ، فوقف بالقرب من مصباح الشارع، وانحنى عليه ، والتمعت فى مقلتيه الدموع !

قال ساكسولوف :

حسن يابنى . ألا تستطيع أن تجد المنزل ؟

ونظر اليه الصبى بعينيه الحزينتين الصافيتين ، فعرف ساكسولوف فجأة ، ما جعله يتشبث بمتابعة الصبى

كان فى نظرة المتجول الصغير وفى طلعته شيء يشبه تاما الى حد كبير

وسأل ساكسولوف فى رقة

ما اسمك ياعزيزى ؟

فأجاب الغلام :

- ليشا ..

- هل تعيش مع امك ياليشا ؟

- نعم مع أمى .. ولكنها أمى السوداء . وكنت اعيش من قبل مع أمى البيضاء

وظن ساكسولوف انه يعنى بالام السوداء احدى الراهبات وقال :

- وكيف تهت ؟

- مشيت مع أمى ، ومشينا، ومشينا .. وقالت لى اجلس وانتظرنى . وحين ذهبت تولانى الخوف

- ومن هى أمك ؟

- أمى ؟ انها سوداء مخنقة !

- وماذا تفعل ؟

وفكر الصبى برهة ، ثم قال :

- انها تشرب القهوة ..

- وماذا تفعل أيضا ؟

وأجاب ليشا بعد صمت قليل :

- انها تتشاجر مع المستأجرين

- وأين أمك البيضاء ؟

- حملوها بعيدا عنى . . لفوها بالاكفان وحملوها بعيدا عنى ! !

وأبى أيضا .. حملوه بعيدا عنى ! !

وأشار الصبى الى مكان قصى، وانفجر باكيا ! !

وفكر ساكسولوف فيما عساه أن يفعل مع ذلك الغلام ؟

وفجأة .. أخذ الصبى يجرى مرة ثانية ، وبعد ان عدا فى زوايا قليلة من الشارع ، ابطأ خطوته، ولمحه ساكسولوف للمرة الثانية، وكان وجه الصبى يعبر عن مزيج من الرعب والفرح .

قال موجهـا حـديثه الـى ساكسولوف ، وهو يشير الـى بناء كئيب ، كبير ، ذى خمسة طوابق :

ـ هذا هو منزل جليوخوف

وظهرت فى تلك اللحظة عند ابواب منزل جليـوخوف امـرأة سوداء الشعر والعينين ، ترتدى ثوبا أسود ، وعلى رأسها منديل اسود به نقط بيضـاء وانكمش الصـبى الـى الوراء ، وهمس قائلا : أماه !

ونظرت اليه زوجة ابيـه فى دهشة ، وقالت :

كيف رجعت الى هنا ، أيهـا الخبيث ؟ ألم اقل لك قف عند الكرسى ؟ !

وكانت المرأة معتزمة أن تضرب الصبى ، لولا ان لحظت رجـلا مهيبا جليل الطلعة ، يبـدو انه يراقبهما ، فخفضت صوتها وهى تقول :

ـ ألا تترك نصف ساعة دون ان تعـدو هنا وهنـاك ؟ لقـد أضنيت نفسى فى البحث عنـك أيها اللئيم !

وخطفت يد الصبى الصغيرة فى يدها الكبيرة ، وجزته داخـل الباب

وعرف ساكسـولوف معـالم الشـارع ، وانصرف عائدا الى داره .

- ٤ -

كان ساكسـولوف يحب ان يستمع الى آراء « فيـدوت » العميقة وقد افضى اليه ـ حين بلغ المنزل ـ بقصة الصبى ليشا فقال فيدوت :

ـ انها تركته قاصدة متعمدة ، يالها من امرأة شريرة ، تضـلل الصبى بعيدا عن الدار ! !



ـ ما الذى حملها على ان تفعل ذلك ؟

ـ لايمكن ان نعرف .. امرأة حمقاء .. وما من ريب فى انها ظنت الصبى سيتجول تائها فى الشوارع حتى يلتقطه احد الناس ، ماذا تتوقع من زوجة لاب ؟ وما فائدة الطفل لها ؟

قال ساكسولوف منكرا :

ـ ولكن البوليس كان سيجدها

ـ ربما .. غير انها ، قد تكون اعتزمت فى تلك الحال ، ان تغادر المدينة . فكيف اذن يجدها البوليس حينذاك ؟

وابتسم ساكسولوف قائلا :

ـ كان ينبغى ان يصبح فيدوف قاضيا دقيقا

وجلس قرب المصباح وبيده كتاب ، ثم اخذت عينيه غفوة ، وشاهد فى احلامه ، تامارا ، بيضاء ، رقيقة ، جاءت وجلست جواره ، وكان وجهها رائعا مثل وجه ليشا ، وحملقت نحوه . وكان فى نظرتها تشبث والحاح ، وكأنها تتمنى شيئا ، وكان يؤلم ساكسولوف ان يرى عينيها الوضيئتين المتوسلتين ، ولايعلم ما هـذا الذى تريده تامارا وترتقبه ؟ !

ونهض مسرعا ، وسار الى المقعد الذى تبدو تامارا جالسة فيه ، ووقف امامها ، وتضرع اليها ، قائلا فى صوت مرتفع :

ماذا تريدين ياتامارا ؟ اخبرينى !

ولكنها لم تعد فى الكرسى !

وعلم ساكسولوف ، ان ذلك ـ ياللحزن ـ كان حلما فقط

ـ ٥ ـ

قابل ساكسولوف آل جورودیششف ، أثناء خروجه من معرض الاكاديمية فى اليوم التالى . وقص على الفتاة حكاية ليشا ، فقالت فاليريا ميخ ئيلوفنا فى صوت رقيق :

— مسكين ذلك الصبى ، انزوجة ابيه — بكل بساطة — تريد ان تتخلص منه

قال ساكسولوف ، وقد ازعجه ان فيدوت والفتاة ، فسرا تلك الحادثة الصغيرة على انها مأساة مفجعة

— ان هذه حقيقة أكيدة !

— المسألة واضحة جلية ، ليس للولد اب ، وهو يعيش مع زوجة أبيه ، وهى تراه مصدر ازعاج لها ، واذا لم تستطع التخلص منه على وجه لائق ، فانها ستنبذه وتطرده

قال ساكسولوف وهو يبتسم

— انك تأخذين الجانب المفجع من المسألة !

وقالت فاليريا مقترحة :

— لماذا لا تتبناه ؟

وسأل ساكسولوف مستغربا

— أنا ؟

وأصرت على ذلك بقولها :

— انك تعيش وحيدا ، وليس يمت لك احد بصلة .. اعمل عملا جميلا فى العيد . وعندئذ ، سوف يكون معك انسان تتبادل واياه التحيات بأى حال ! !

— ولكن . . . ماذا أصنع لذلك الطفل ، يا فاليريا ميخائيلوفنا ؟

— احضر له مربية .. يبدو ان القدر هو الذى ارسل اليك هذا الغلام ، ونظر ساكسولوف — دون وعى — فى دهشة ورقة ، الى وجه الفتاة المحمر المنتعش ، وخيل اليه — حين ظهرت له تامارا فى احلامه ذلك المساء — أنه عرف ماكانت تريده . وسمع

هذه الكلمات « افعل كما قالت لك » .. وبدا أن لهذه الكلمات رنينا أملس فى هدوء غرفته

واستيقظ ساكسولوف متهللا ، مبتهجا ، ومر بيده على عينيه الناعستين . ووقع بصره على عود من الليلك الابيض فوق المائدة .

من أين أتى ذلك العود ؟ هل تكون تامارا تركته دليلا على ماتريد ؟ ! وتراءى له فجأة انه سوف ينجز رغبة تامارا ، بزواجه من فتاة جوروديشف، وبتبنيه ليشا ، واستنشق روائح الليلك العاطرة وهو فى غمرة من السعادة ، وتذكر انه هو الذى اشترى الزهر بنفسه فى ذلك اليوم ، ولكنه قال لنفسه : أن ذلك لايحدث اختلافا ولا تباينا ، وان الفأل الحسن ، يكمن فى اننى رغبت فى شراء الليلك ، ثم نسيت اننى اشتريته »

- ٦ -

شرع ساكسولوف فى الصباح يسأل عن ليشا ، وقابله الصبى عند الباب ، وأراه أين يعيش أوكانت ام ليشا تشرب القهوة وتتشاجر مع مستأجر احمر الانف . هذا ما استطاع ساكسولوف أن يعرفه من ليشا . لقد ماتت أمه وهو فى الثالثة من العمر وتزوج أبوه هذه ليشا المرأة السوداء ، ومات فى نفس السنة . وكان للمرأة السوداء ، « ايرينا ايفانوفنا » طفل عمره عام . وكانت على وشك الزواج مرة أخرى ، وسوف تقام ليلة الزفاف خلال ايام معدودات ، ويرحلون عقب ذلك الى الاقاليم . وكان ليشا يقف فى طريقها ، وهو غريب بالنسبة اليها

واقترح ساكسولوف قائلا :

ـ اعطينى هذا الغلام

قالت ايرينا ايفانوفنا فى فرح حاقد :

ـ بكل سرور

وسكتت . ثم اضافت :

ـ فقط ، لابد ان تدفع لى ثمن ملابسه

وعلى ذلك اقام ليشا فى دار ساكسولوف ، وعاونته بنت جورودیششف ، على ايجاد مربية ، وعلى تيسير كل شيء يرتبط بوجود ليشا فى المنزل وكانت تزور لهذا الغرض منزل ساكسولوف .

وقد بدت وهى منهمكة على ذلك الوجه ، مخلوقا مغايرا لساكسولوف . ولاح ان باب قلبها فتح له !! واصبحت عيناها ملتمعتين جميلتين وقد اخذت تتسلل اليه بنفس الرقة التى كانت تنبعث من تامارا

- ٧ -

لامست حكايات ليشا عن امه البيضاء الوتر الحساس من قلب فيدوت وزوجته . وقد علقا بيضة من السكر على حافة سريره ليلة سبت الآلام ، وهما يضعانه فى الفراش وقالت كريستين :

ـ هذه من امك البيضاء . ولكن يجب الا تلمسها ياعزيزى ، الا حين يبعث المسيح وتدق الاجراس !

ورقد ليشا مطيعا ، وظل فترة طويلة يحملق فى البيضة ، حتى غلبه النعاس

وجلس ساكسولوف وحيدا فى الدار ذلك المساء . وخامره

- في منتصف الليل - شعوربالنعاس ، لاتمكن مقاومته ، فاغلق عينيه . وكان سعيدابذلك ، لانه سيرى تامارا في الحال . وقد جاءت تامارا ،مرتدية ثوبا ابيض ، بهيا ، وحملت معها ذلك الصوتالبعيدالفرحان ، المتطاير من اجراس الكنيسة . وانحنت فوقه وهيتبسم بسمة صافية ، وأحس ساكسولوف بفرح يعز علىالوصف وشعر بلمسة رقيقةعلى شفتيه . وقال صوت ناعم حنون :

« لقد قام المسيح »

ومد ساكسولوف ذراعيهدون ان يفتح عينيه ، وعانق جسما رقيقا نحيلا ، وكان هذا . هوليشا وقد زحف على ركبتيه ليحيي أباه تحية العيد

ان اجراس الكنيسة قدايقظت الغلام ، فأمسك البيضة واسرع الى ساكسولوف

وصحا ساكسولوف . وضحك ليشا وقبض على البيضة المبكرة بيديه . . وقال وهو يفأفيء :

- أرسلتها لي ، الامالبيضاء . وسأعطيها لك . . وأنت تعطيها لانتي فاليريا

وأجاب ساكسولوف

- حسن ياعزيزي . . سأعمل كما قلت .

ووضع ليشا في سريره ،وذهب بعدئذ الى فاليريا ميخائيلوفنا وهو يحمل بيضةليشا المبكرة هدية الامالبيضاء ولكنها بدت لساكسولوف فيذات اللحظة كأنها . . هدية من تامارا . .


مجلة الجميع
الدكتور
الدكتور

٩ ــ **جيشنا فى فلسطين** ــ تسجيل تاريخى لمعارك الجيش المصرى فى حملتــه لانقاذ فلسطين من الارهاب الصهيونى للصاغ السيد فرج

١٠ ــ **الف ليلة الجديدة** ــ المجموعة الثانيــة للاستاذ عبد الرحمن الخميسى

١١ ــ **فى المرآة** ــ مختار المرايا المنشورة فى السياسة الاسبوعية لفقيد الادب الشيخ عبدالعزيز البشرى

١٢ ــ **غاديات رائحات** ــ قصص مصرية للاستاذ محمود طاهر حقى

١٣ ــ **صانع الحب** ــ مجموعة من القصص الواقعيــة للاستاذ احسان عبد القدوس

١٤ ــ **دموع وضحكات** ــ مجموعــة قصص واقعيــة للاستاذ عباس حافظ

١٥ ــ **عنــدما تحب المرأة** ــ مجمــوعة قصــص مصريــة للاستاذ حلمى مراد

١٦ ــ **حاجى بابا الاصفهانى** ــ عن جيمس موريــه للاستاذ مرسى الشــافعى

١٧ ــ **جــرائم ومرافعــات** ــ مجموعــة من اشــهر القضايا للاستاذ يوسف حلمى

١٨ ــ **الطريق الى السعادة** ــ عن الفيلسوف الامريكى هنرى لنك للصاغ ثروت محمود

١٩ ــ **موعد فى الجنة** ــ قصص واقعية عن الابطال المصريين الذين استشهدوا فى فلسطين للاستاذ حلمى سلام

٢٠ ــ **نجيب الريحانى** ــ دراسة وافيــة دقيقــة للاســتاذ عثمان العنتبلى

٢١ ــ **صور من الريف** ــ صورة صادقة لحياة الريف بما فيه من نعيــم وشقاء ومسرات واحزان للاستاذ زكى عبد القادر

٢٢ ــ **الحب فى التاريخ** ــ اشهر قصص الحب التاريخية للاستاذ سلامة مــوسى

٢٣ ــ **عشرة ايام فى السودان** ــ لمعالى الدكتــور محمد حســين هيكل باشــا

فهرس

كتب للجميع

« كتب قيمة بقروش زهيدة »

صاحبة الامتياز : شركة التوزيع المصرية « ش . م . م »

عضو مجلس الإدارة المنتدب : السيد أبو النجا

رئيس التحرير المسئول : محمد فائق الجوهرى المحامى

مدير الإدارة : أمين عدلى

الاشتراكات { ٦٠ فى السنة فى القطر المصرى والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية الداخلة فى اتحاد البريد - ١١٠ فى الأقطار الأخرى

الإدارة : ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة - تليفون ٧٧٣١٩

طبع بمطابع جريدة « المصرى »